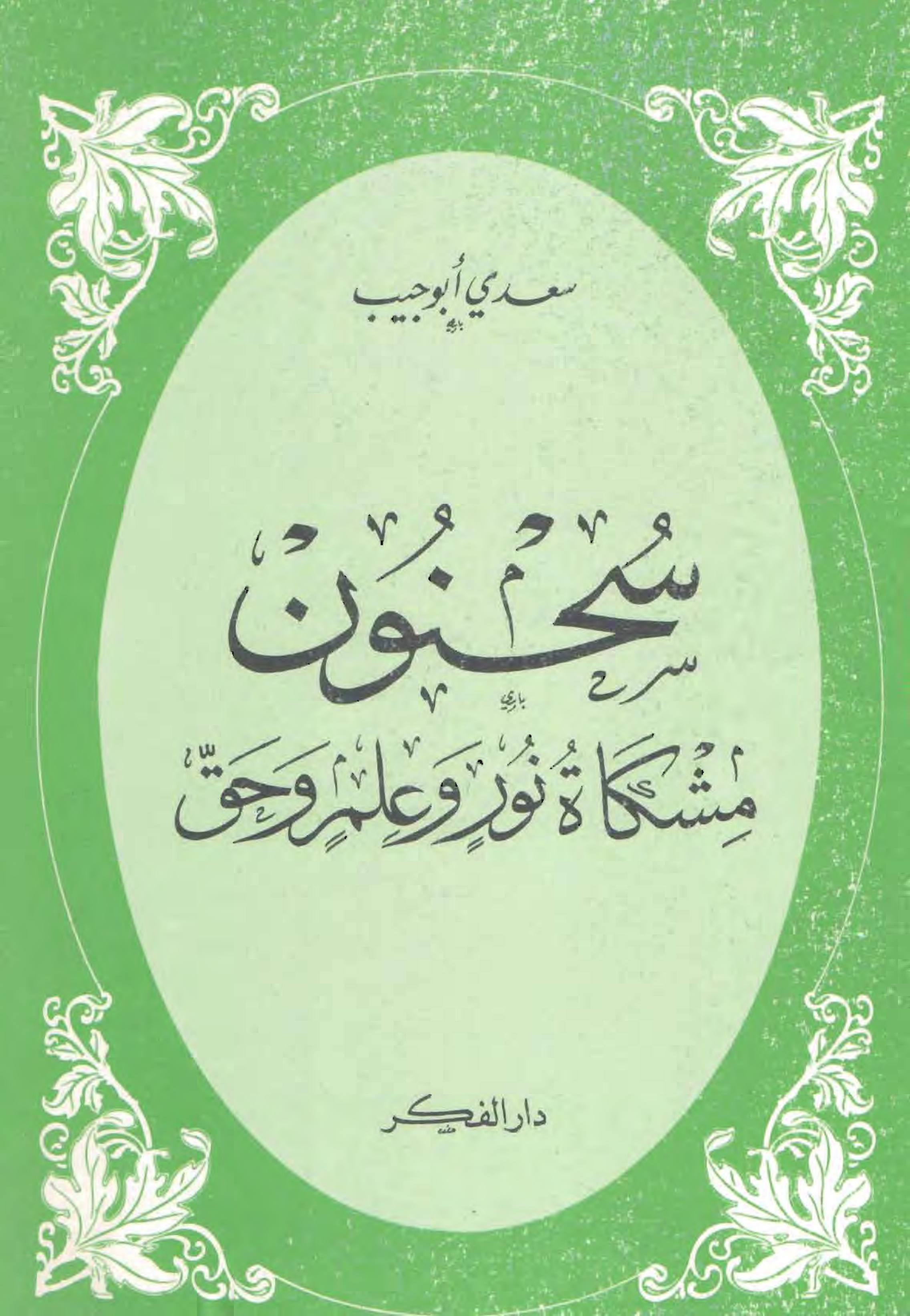


سعدي أبو جيب
سُحنون
مِشكاةُ نورٍ وعِلمٍ وحقّ
دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

سحنون
مشكاة نور وعلم وحق

سعدي أبو جيب



دار الفكر

تصوير ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الطبعة الاولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

يقدّم المؤلّف شكره
لدار الفكر: إدارة وعمّالاً
على ما قدّموا من جهدٍ
في سبيل إخراج الكتاب
بارك الله لهم فيما أنعم
وجزاهم خير الجزاء

سعدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

سحنون والسعدي

بقلم
العلامة الكبير السيد محمد المنتصر الكتاني

هذه سيرة ولا كالسير ، هي قبس من حياة سحنون ، الفقيه المالكي المذهب ، المدني المشرب ، هي سيرة قاضٍ ، وسيرة عالم ، وسيرة عابد ، شبحه مقيم في المغرب ، وروحه معتكف في الحجاز ..

وهي قصة في سيرة ، وهي رسم في لوحة ، وعبرة في كتاب ، وحكمة أخذت من محكمة ، في صرامة حاكم ، وهيبة قاضٍ ، وزهد عابد ..

قصة كساها العدل هيبة ، والحق سلطاناً ، قاضٍ يهابه الناس ، ولا يهاب إلا الله ، لا يخاف فيه لومة لائم ، الضعيف عنده قوي ، والقوي عنده ضعيف ، حتى يديل لأحدهما من الآخر ، فإذا هم سواء كأسنان المشط ..

وهي نموذج اختاره ولدنا القاضي سعدي أبو جيب ، ليبرز به علماً من أعلام السلف ، وقاضياً من قضاة الشرع ، ومربّياً يربّي بحاله وقاله ، هو مثل من المثل العليا يجب أن يحتذيها معلمو عصرنا ومتعلموه ..

هكذا أراد منها القاضي سعدي ، والمختار معجب ، والمعجب داعية لما أعجب به ، ومتمنٍّ فعله وسلوكه ، ومن هنا جاء التشابه بين النموذج سحنون ، وبين مختاره سعدي ..

فسحنون قاضٍ ، وسعدي قاضٍ ، سحنون مثل في حكمه ، وسعدي متفاعل معه في حكمه ، سحنون مدني الفقه والمشرب ، وسعدي مدني الحب والمشرب .

ومن هنا اتخذ سعدي حياة سحنون قصة ، ودوّنها بأسلوب القصة . لا بتحقيق السيرة ، إذ اتخذ سحنون أداة دعوة للإسلام عقيدة ونظاماً ودولة ..

فكان سعدي بذلك مترجماً لسيرة في ثوب قصة ، وقصة برداء سيرة ، فكان له ما أراد ، وساعده على ذلك يراع أديب ، وخيال قاصٌ ، وعزم قاضٍ .

وسعدي درس القانون والشريعة ، فأخذ يسعى لنصرة الحق بالحكم ، وليزهق باطل القانون ، فعرف الحق في الشريعة ، فسعى إليها ، وكشف الباطل في القانون ، فأعرض عنه ، وكتب في ذلك وقارن ، وهو لا يزال يكتب ويقارن ، والله ناصر دينه الحق ، ولو كره الكافرون ، ورافع ألوية العدل ، ولو كان المنافقون بعضهم لبعض ظهيراً ..

وسعدي شاميٌّ ، والشاميّ يدب لهدفه برفقٍ وأناة ، ودبيبه رملان وخبب ، وقلّما يفوته مراده إن أراد .

ولكن ليدخل الشاميّ في عموم البشارة النبوية : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، وهم على ذلك إلى يوم القيامة ، وهم بالشام » في رواية صحيحة ، ليكون كذلك يجب أن يثبت على موالاة أهل البيت ففي الحديث الذي خطب به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين ألوف من الصحابة رضي الله عنهم ، وهو عائد من حجة الوداع ، فقال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله تعالى ، وعترتي آل بيتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » .

وقد قال بصحته وبتواتره أعلام الشام وحفّاظه ، وناهيك بأحاديث في معناه. يصححها أهل الشام ويثبتونها ، فشدّ عليها يديك ، وعضّ عليها بنواجذك .

وآخر دعوانا ، أن الحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة ــ ١٣ جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ

محمد المنتصر الكتاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

فكري مشدود للتاريخ ، لسير الرجال في كل الأعصار ، لأني أحب الحياة ، أحب القيم المجسدة بشراً يدب على ظهر هذا الكوكب •••• أحب البحث عنه ، وأعشق التنقيب عن دقائق حياته ، وما أسعدني حين أكتب ••

وكم في سجل الخلود ، لأمتنا العظيمة من رجـال تمثلت فيهم الأخلاق ، والأصالة ، والإنسانية ، حتى غدوا نجوماً لا يفنى مع الزمان لها نور ، ولا يبلى أبد الدهر لها ذكر ••

واحد من هؤلاء الأعلام ، الذي شرّف هذا الكتاب اسمه ، وقف في محراب الدين الحنيف عابداً قانتـاً ، وفي هيكل العلم سادناً ، وفي ساحة الحق والجهـر بالفضيلة سيفاً لا يُفلّ له حدّ ••

إنه سحنون ، اسمه ترنيمة المذهب المالكي ،•• إنه العالم الحق ، والعابد الصدق ، هبة الله جل جلاله لهذه الأمة ••

لقد كان مشكاة نور وعلم وحق ••

• • •

ونحن في هذا السفر اللطيف سنرسم ملامح هذه الشخصية الفذة ، ليعرفها من لم يعرف ، ويذكرها من شغلته زحمة الحياة ••

ولتأنس ، أخي الحبيب ، بالرجال الذين يتسللون إلى فكرك لواذاً ، وأنت تقرأ ، قام صديقي المحقق الشيخ محمد أحمد قمر ، أحد علمائنا في الباكستان ،

بتزيين هذا الكتاب ، بوضع ملحق تضمن ترجمة رقيقة لأبرز أولئك الأعلام ، فله مني ومنك خالص الشكر ، وصافي الثناء ..

والله الموفق .

مكة المكرمة : غرة ربيع الأنور سنة ١٣٩٨ هـ
٨ شباط سنة ١٩٧٨ م

سعدي

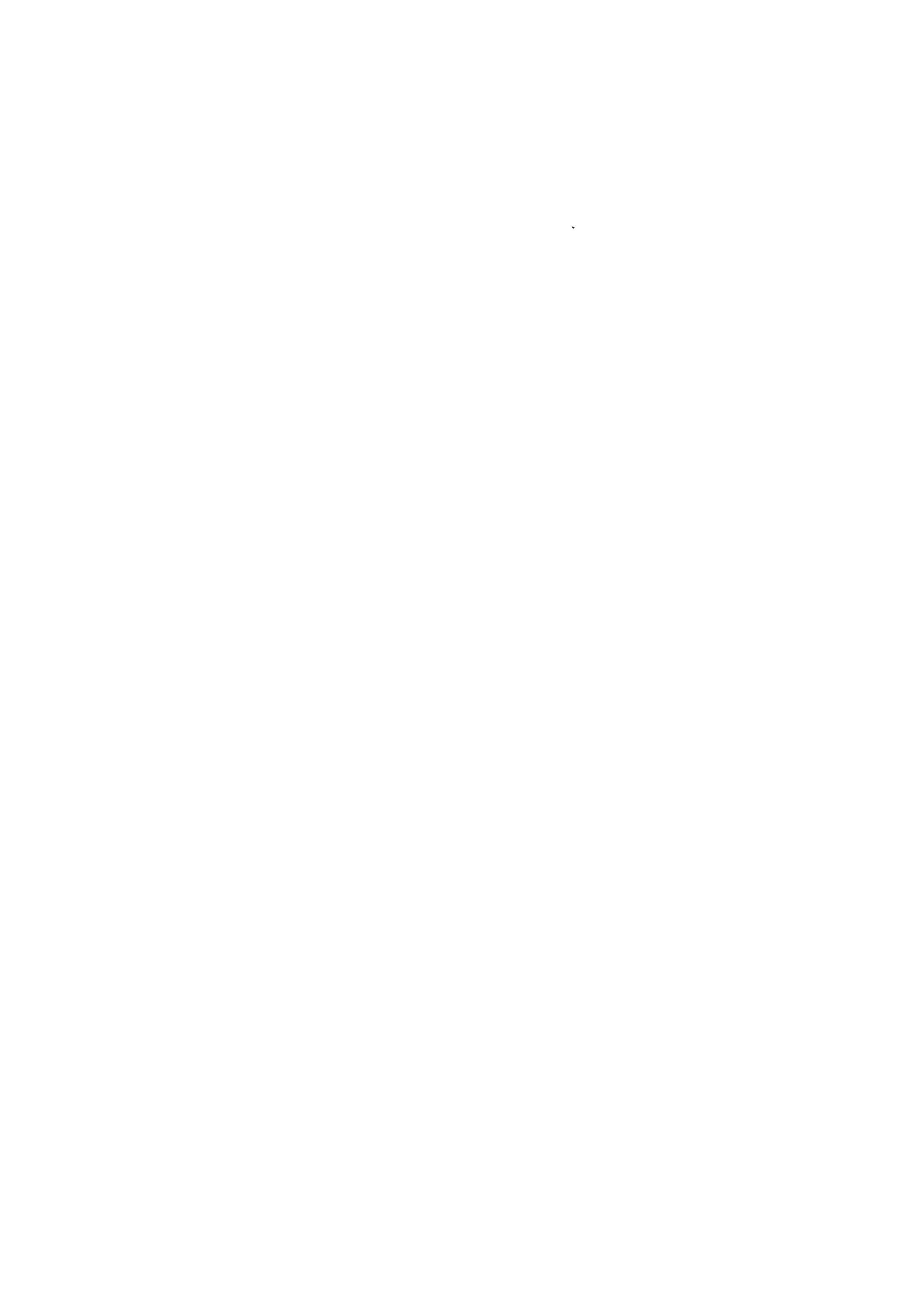
من هو ؟

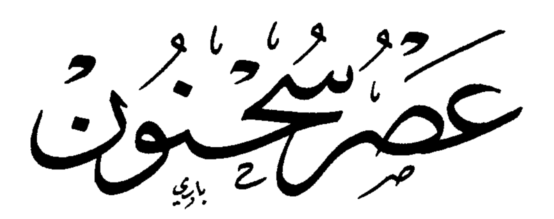
إنه عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ، من حمص أصله ، نزل والده القيروان مع من نزلها من العرب الأقحاح الذين هاجروا من المشرق العربي ، في يمنـاهم سيف الحق ، وفي قلوبهم يرتع الإيمان ، وعلى جبـاههم سطر الخلود : الله أكبر ..

مولده كان في القيروان ، بلدة عقبة المجاهد ، يوم الفاتح من رمضان المبارك سنة مئة وستين للهجرة (٧٧٧ م) ..

ولقبه سحنون (بفتح السين وضمها) ، اسم طائر حديد النظر يعرفه أهلنا في المغرب ..

ولقد كان ربع القامة بين البياض والسمرة ، حسن اللحية ، كثير الشعر ، بعيد ما بين المنكبين ، أنيق اللباس والمظهر .. كل هذا أكسبه مهابة وجلالاً على ما للعلم من هيبة وجلال ..




عصر سحنون



نحن لن نخوض في الحديث عن عصر سحنون الى الأعماق ، ولن نصل إلى الأبعاد ، وإنما سنلقي النظرة العجلى على البقعة المباركة التي بها ترعرع ، وفي قلبها الحاني استراح ..

انها تونس الخضراء ، فلذة من كبد الأرض العربية في المغرب ، منها امتد الفتح الاسلامي واستطال حتى الأطلسي ..

ونحن سنتحدث عن البنية الاجتماعية ، وعن الحالة السياسية ، فنقول :

أ ـ البنية الاجتماعية :

كان سكان المغرب العربي من البربر يعيشون البداوة بكل معانيها ، وحدة القبيلة ، الصراع القبلي الذي لا يفتر ، التمزق الاجتماعي ، التخلف الحضاري في كل ما تحمله هذه الكلمة من مضمون ...

وكان على الساحل مدن ذات مجد ورقي ، مشرشرة أنشأها الفينيقيون واليونان والرومان ، تعيش في بعض الأحيان قلقة ، تتوقع هجمة بربرية تسلب فيها وتنهب ..

وحين جاءت جحافل العرب تحت راية الإسلام الخفاقة إلى الأبد ، فوجئت بمقاومة عنيفة من القبائل البربرية .. ومن تأمل تاريخ الفترة الواقعة ما بين سنة ٢٦ الى سنة احدى وثمانين للهجرة أدرك ضراوة المقاومة ، وأدرك أيضاً روعة التضحية التي قدمها المسلمون في سبيل هذا الدين الحنيف ...

وما أن انتهى القرن الأول الهجري حتى انتشر الإسلام بين البربر ، وأشربت قلوبهم العقيدة والإيمان بعد تقديس الكواكب ، واعتناق اليهودية والنصرانية ،

وأصبحوا بذلك مع العرب إخوة في الجهاد[1] .. ومن منا لا يذكر باعتزاز طارق وفتيته الغرّ الميامين الذين أثبتوا راية التوحيد على ذرى البرنيه ..

بيد أن البيئة البدوية تحتاج إلى من يرعاها حق الرعاية ، ويأخذ بيدها إلى مراقي الخير والفلاح .. فإذا فقدت ذلك الراعي عادت سيرتها الأولى ..

وهكذا كان الحال بين البربر .. ففي الوقت الذي كان الإسلام غضاً في نفوس العديد من قبائلهم نزل بينهم بعض الخوارج فراراً من سلطة الخليفة هشام بن عبد الملك ، وأذاعوا التمرد والعصيان ، فوجدوا في تلك النفوس استجابة بالغة .. والخوارج يتغلغلون في المجتمعات تحت ستار من عبادة ، وقراءة ، وتمسك بظواهر النصوص ، عزّ له نظير ..

وقد رأينا حركة عنيفة تثور في وجه عمر بن حفص والي المنصور الخليفة العباسي تضم فيمن تضم أربعين ألفاً من الخوارج الصفرية ، وخمساً وعشرين ألفاً من الإباضية كانوا يرمون عن قوس واحدة ..

وكذلك الحال حين وصل ابو عبد الله الشيعي الداعية الباطني المعروف الى منطقة كتامة في الجزائر سنة ٢٨٠ هـ التف البربر حوله ، وعظم أمره ، وأصبح لدعاة الباطنية دولة استطاعت أن تكتسح الشمال الافريقي كاملاً ، واندفعت بعد

---

(١) قال ابو اسحق اطفيش: « لقد حصل امتزاج البربر بالعرب منذ اذعنوا للإسلام ، ووقفوا على كمالاته الخلقية والدينية والاجتماعية بما لم يقع منهم مع امة من الامم التي استولت على شمال افريقية ، وذلك لأمور :

الأول : أنهم من اصل واحد ، وهو السامية .

الثاني : أنهم رأوا من جلال الهداية الاسلامية ما لم يروه قبلها .

الثالث : ان العرب اتخذوا بلاد البربر وطناً لهم ، فكانوا مع البربر جنباً الى جنب عملاً ومصاهرة واختلاطاً ، بخلاف الروم والوندال والقرطاجنيين والرومان ، فانهم كانوا بمعزل عن ابناء البلاد .

الرابع : وجود التوافق في كثير من الشيم والعوائد بين العرب والبربر ، كاكرام الضيف ، والغيرة على العرض ، والشمم ، والأنفة ، وحماية الذمار ، وبساطة العيش .. » . ونحن معه في ذلك .

وقد اخبرني العلامة السيد محمد المنتصر الكتاني ان من العلماء من يجعل اصل البربر من اليمن ، وان البربر يسمون انفسهم ابناء مازيغ .

ذلك لتحتل مصر والشام والحجاز واليمن •• انها الدولة العبيدية ، التي تعرف خطأ بالدولة الفاطمية ••

• • •

نخلص من ذلك إلى ان المجتمع في المغرب العربي كان يتألف من عرب ، وبربر ، وأنه تغلب عليه البداوة بكل معانيها ، وأن الجميع منصهر في بوتقة واحدة، ميّال الى الثورة ، كلما وجد فرصة اهتبلها ••

انه مجتمع جياش بالقوة والنشاط ، ليته وفق بقيادة تدرك ذلك ، فتوجهه نحو الجهاد في سبيل الله •

إذاً لتغير وجه التاريخ ••

• • •

ب ـ الحالة السياسية :

بعد أن أتم المسلمون فتح المغرب العربي قسموه إدارياً إلى ثلاثة أقسام : **المغرب الادنى** ، أو إفريقية[1] ، وقاعدته مدينة القيروان[2] التي اختطها ، وأسسها بطل الإسلام عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) ، وسمي الأدنى لقربه من حاضرة الخلافة في المشرق ، **والمغرب الاوسط** ، وقاعدته مدينة تلمسان ، وهو يشمل بلاد الجزائر ، **والمغرب الاقصى** ، ومركزه مدينة فاس ••

وكان موقع المغرب العربي البعيد عن عين العاصمة ، والبنية الاجتماعية التي وصفنا ، مرتعاً خصباً لكل ثائر ، ولأي أمير فيه نزعة للاستقلال الفعلي ، والسياسي أيضاً •

ولهذا فقد رأينا في وقت مبكر ولايات متمتعة بالاستقلال الفعلي عن بغداد ،

---

(١) كان العرب يطلقون كلمة افريقية على المغرب الادنى والاوسط ، فتشمل ليبيا وتونس والجزائر •
(٢) القيروان : لفظ فارسي استعمل في العربية ، ومعناه : محط الجيش •

لبس للخليفة العباسي من سلطة فيها إلا ذكر اسمه الكريم في الخطبة ..

من هذه الولايات الولاية التي أسسها في تاهرت[1] عبد الرحيم بن رستم بمساعدة الإباضية ، والتي ولدت سنة ١٣٧ هـ ، واستمرت حتى سنة ٢٩٧ هـ .. والولاية التي أنشأها بنو مدرار في سجلماسة سنة ١٦٧ هـ ، وبقيت حتى سنة ٢٥٧ هـ .

بل لقد رأينا دولة ولدت سنة ١٧٢ هـ في المغرب الأقصى ، تعلن لأول مرة في التاريخ الإسلامي استقلالها السياسي عن الخلافة العباسية .. تلكم هي دولة الأدارسة ، الذين كانوا يقولون بأنهم أصحاب الحق بالخلافة ، لأنهم من أحفاد علي رضي الله عنه ، وأن بني العباس قد اغتصبوا ذلك الحق . وقد استمرت هذه الدولة على قيد الحياة قرنين كاملين .

وفي عام ١٨٤ هـ ظهرت في المغرب الأدنى دولة الأغالبة ، ولا بد من الحديث عنها ، لأن عالمنا الكبير سحنون عليه رحمة الله عاش في ظلها عمره المديد ..

كانت الثورات والفتن تعج في المغرب الأدنى ، بعضها آخذ برقاب بعض ، وهي تزداد قوة وانتشاراً بقدر عجز الولاة ..

ولذا فقد أرسل هارون الرشيد جيشاً لجباً ، بإمرة رجل محنك ، عركته الحرب والحياة ،.. انه هرثمة بن أعين ..

وفي شهر ربيع الأنور من سنة ١٧٩ هـ وصل هذا الجيش الى المغرب ، واستطاع إخماد الفتن ..

ولكن هذه النعمة لم تدم غير بضعة أشهر ، فقد طلب هرثمة من الخليفة إعفاءه من هذه الولاية القلقة ، فتم له ما أراد ، واستبدل به في رمضان سنة ١٨١ هـ

---

(١) مدينة كبيرة في الجزائر ، تقع في منطقة زراعية غنية بالأشجار والمياه ، وكانت قديما عش الإباضية ...

محمد بن مقاتل بن حكيم العكي ، رضيع الرشيد ، وابن واحد من كبار رجال الدولة .

غير أن هذا الوالي أهدى الناس ظلمه وجوره وكريم إساءته منذ أيامه الأولى ، فردوا عليه هديته بثورة جمعت العرب والبربر ، واستطاعوا طرده من القيروان .. إلا ان والي الزاب[1] إبراهيم بن الأغلب زحف بجيشه وأخمد الثورة وأعاد للوالي هيبته ..

عند ذلك ، وبنصيحة من هرثمة بن أعين ، قرر الرشيد تعيين ابراهيم والياً وترك له حرية التصرف ...

وبوصول إبراهيم الى الولاية سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) ولدت دولة الأغالبة ..

ولعل الرشيد كان يرى ان تقوية مركز ابن الأغلب يعين على بتر الفوضى ، ويوجد قوة تستطيع حصر دولة الأدارسة في أضيق رقعة من الأرض ...

كان ابراهيم رجل دولة من الطراز الأول شجاعة ، وحزماً ، وإدارة ، وسياسة ، ولذلك فقد شمر عن ساعد عزيمته في سبيل تأسيس هذه الدولة ...

ـ بنى مدينة العباسية ، وتعرف أيضاً بالقصر القديم ، على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، واتخذها عاصمة لدولته ..

ـ قضى على جميع الثورات التي شبّت في أيامه .. وكان من أعتاها ثورة حمديس ، وقد اشتعلت سنة ١٨٦ هـ في منطقة طرابلس ، ولم تخمد إلا بعد أن صب عليها ابراهيم دم حمديس ومعه عشرة آلاف رجل من جنده ..

واما ثورة قبيلة الهَوّارة (بفتح الهاء وتشديد الواو) فقد استعرت في

---

(١) الزاب : منطقة واسعة تقع بين تلمسان وسجلماسة في الجزائر ، ذات ارض خصبة جدا ، ومياه غزيرة .

المنطقة ذاتها بقيادة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ولم تخمد لأن المنيـة عاجلت الأمير الكبير ..

مات ابراهيم سنة ١٩٦ هـ (٨١١ م) ، وجاء بعده ابنه عبد الله الأول ، الذي هادن عبد الوهاب « على أن يكون البحر والبلد لعبد الله ، وما كان خارجاً عن ذلك يكون لعبـد الوهاب » .. أي ان سيطرة الأغالبـة انحصرت في الشريط الساحلي من منطقة طرابلس ... كان عبد الله على غير منهج والده في السـيرة والسياسة .. فقد كان سيء السلوك حتى مع أسرته وعشيرته ، وكان مع الناس أسوأ وأعتى ..

توفي عبد الله سنة ٢٠١ هـ (٨١٦ م) ، وجاء بعده زيادة الله الأول ، وكـان مثل سلفه جوراً وظلماً إن لم يفقه في هذا الميدان ..

كانت أعنف الثورات في عهده تلك التي قادها منصور بن نصير الطنبذي في تونس سنة ٢٠٧ هـ ، واستمرت حتى سنة ٢١١ هـ بعد ان شملت قسماً كبيراً من تونس ، ولم يتمكن زيادة الله من القضـاء عليها الا بسبب صراع قوادهـا واختلافهم فيما بينهم ..

وفي عهده تم فتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، واستقرت أقـدام المسلمين فيهـا(١) ..

وفي سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٧ م) توفي زيادة الله وجـاء بعده أخوه أبو عقـال الأغلب بن ابراهيم ، وهو ثالث أبناء ابراهيم الذين تولوا إمارة الدولة .. وكان حسن السيرة والسياسة ، أزال المظالم التي جرح بها سلفه نفوس الناس ..

---

(١) لقد تعرضت صقلية لغزوات عدة .. غزاها عبد الله بن عيسى الفزاري في عهـد معاوية بن ابي سفيان ، ومحمد بن ادريس الانصاري في عهد يزيد بن عبد الملك ، وبشر بن صفوان الكلبي في عهـد هشام بن عبد الملك ، وفي عهده ايضا غزاها حبيب بن ابي عبيدة .

وكان المسلمون في غزواتهم هذه بين مد وجزر ، وان اقدامهم لم تثبت في هذه الجزيرة الا في عهـد الأغالبـة .

وفي ربيع الآخر سنة ٢٢٦ هـ (٨٤٠ م) توفي وخلفه ابنه ابو العباس محمد الأول ..

وفي عهده تمرد عليه اخوه أحمد ، حتى تمكن في سنة ٢٣٢ هـ من القبض عليه ، ونفاه إلى العراق حيث مات .. وثار عليه سالم بن غليون ، فقضى عليه ، وثار أيضاً عمرو بن سليم التجيبي ، الا انه وجد سنة ٢٣٦ هـ نفس مصير الثائر الأول ..

• • •

ولقد بقيت دولة الأغالبة حتى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م)[1] ، إذ سقطت بيد الدولة العبيدية هي وجميع الدول التي كانت على أرض المغرب العربي ..

• • •

تلك هي دولة الأغالبة ..

ونقول في رسم معالمها السياسية البارزة أنها دولة عربية النجاد ، ذات أستقلال فعلي ، ليس لخليفة بغداد فيها إلا الذكر والدعاء في خطبة الجمعة ، وهي ذات شوكة ومنعة ، تصدت للثورات الداخلية ، وما أكثرها ، وما أعتاها ، لها جيش قوي في البر ، وأسطول عملاق في البحر له وقائع مجيدة مع أسطول الروم، وحسبنا أن نذكر من مآثره فتح صقلية ، ومالطة ، وسردينية .

---

(١) لقد تربع على كرسي الإمارة في دولة بني الاغلب احد عشر اميرا ، ذكرنا منهم خمسة وفيما يلي البقية ، وسنة ولاية كل منهم :

٦ ـ أحمد بن محمد : سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) .

٧ ـ زيادة الله بن محمد الاصغر : ٢٤٠ هـ (٨٦٣ م) .

٨ ـ ابو الغرانق محمد بن أحمد : ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) .

٩ ـ ابراهيم بن أحمد : ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) .

١٠ ـ ابو العباس عبد الله بن ابراهيم : ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) .

١١ ـ ابو مضر زيادة الله بن ابي العباس : ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) .

وفي وصف ملامح العمران والاقتصاد في تلك الدولة نقول أن أمراء الأغالبة قد ابتنوا المدن ، كالعباسية ، والرّقّادة ، وتفننوا بعمران المساجد ، والقصور ، ومعاهد العلم . وأنشأوا أقنية الري ، وأحيوا الأراضي الموات ، فازدهرت الزراعة، وانتشرت الأشجار في البادية ، واهتموا بالصناعة بالغ الاهتمام ، فإذا الدولة تعج بمعامل الزجاج ، والخزف ، والأسلحة ، والدباغ ، والورق ، والنسيج ، وغير ذلك من فنون الصناعة .. وأما التجارة فكانت نامية في البر والبحر ، حتى كنت تجد من البضائع في أسواق القيروان مالا يكاد يدركه حصر ..

كل هذا وذاك أدى إلى أن ينعم الناس في عهد الأغالبة بالأمن والأمان ، وبطراوة العيش والرخاء والازدهار ..

ولم يكن أحد يعرف للضرائب والرسوم وجوداً .. فما أحلاها من دولة..!..


في رحاب العلم

طالب العلم

حين تتأمل شجرة وارفة الظلال ، مباركة العطاء ، لا بد أن نذكر البذرة الطيبة ، والأرض الصالحة ، والعين الساهرة الراعية ..

وهكذا كان سحنون ..

صغيراً رتع في رياض الجنة ، في مجالس العلم ، بين يدي كرام بررة من علماء القيروان ، وغيرها من بلاد الخضرة والجمال تونس الحبيبة ..

من هؤلاء علي بن زياد ، وأبو مسعود العباس بن أشرس ، والبهلول بن راشد ، وأبو خارجة ، وابن أبي حسان ، وابن غانم ، وابنه أشرس ، وابن ابي كريمة ، وأخوه حبيب ، ومعاوية الصمادحي ، وأبو زياد الرعيني ... وشاباً في الثامنة والعشرين من العمر (سنة ١٨٨ هـ) رحل في سبيل العلم إلى مصر العرب ..، لأن في العلم ظمأ لا يعرف روعته إلا أبناؤه الأوفياء .. فهم في شوق الى المزيد من نميره ، كلما شربوا اشتد الصدى ، واستعر الشوق إلى المزيد المزيد .. وهكذا إلى ان يلفهم اللحد في طياته ..

رحل إلى مصر ، وفيها أصحاب مالك بن أنس إمام دار الهجرة وإمام المسلمين . وكم كان يتوق الى لقاء الإمام لولا ضيق ذات يده ووفاة مالك سنة ١٧٩ هـ .. وتلقى علم عبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب ، وسعيد بن الليث بن سعد ، وابن وهب ،وعبد الله بن عبد الحكم ...

وخرج بعد ذلك إلى الحج في ركب ضم أسياد العلم في عصرهم : ابن القاسم، وأشهب ، وابن وهب .. لقد كانت رحلة علم وعبادة .. وهكذا فليكن الحج ..

وفي المدينة المنورة سمع من عبد الله بن نافع الصائغ ، ومعن بن عيسى ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، وسفيان بن عيينة ..

وفي مكة المكرمة سمع من عبد الرحمن بن مهدي ، ووكيع بن الجراح ، وحفص بن غياث ، ويزيد بن هارون ، ويحيى بن سليمان ، وأبي داود الطيالسي ، وأبي اسحاق الأزرق ..

وهؤلاء جميعاً في ذروة الذروة من علماء ذلك العصر الذهبي ، كل منهم كوكب دري يوقد من شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها بإذن ربها علماً وتقى وصلاحاً لمن يريد الله به خيراً ...

وفي سنة احدى وتسعين ومئة عاد سحنون إلى القيروان بعد هذه الرحلة السعيدة ، وفي قلبه ألف قبس من نور هؤلاء الأعلام ومن فكرهم وخلقهم ...



عاد سحنون إلى موطنه ليتبوأ سدة العلم فيه •• وكيف لا يتربع عليها ، وتشرئب نحوه الأعناق والأئمة الذين ذكرنا شيوخه ورعاة فكره وخلقه ودينه وعلمه ••؟••

ونحن سنترك الحديث عن مكانته العلمية لعلماء أجلاء عرفوه فوصفوه ••

ـ شهد له أستاذه ابن القاسم فقال : إن يكن أحد يسعد بهذه الكتب فسحنون المغربي •• »

وقال مرة عنه : ما قدم إلينا من إفريقية أحد مثل سحنون ، لا ، ولا ابن غانم •• »

ـ أستاذه أشهب قارن بينه وبين أسد بن الفرات فقال : سحنون أفقه من أسد بن الفرات تسعاً وتسعين مرة •• »

وأشهب شيخ الاثنين ••

ـ وأسد بن الفرات حين توجه إلى فتح صقلية استنصحه صديقه عبد الرحمن بن عبد ربه عمن يأخذ العلم بعده فقال : عليك بسحنون فما أعلم أحداً يشبهه •• »

ـ وقال فيه حمديس القطان : رأيت أبا المصعب الزهري صاحب مالك بالمدينة ، ورأيت أصحاب ابن القاسم بمصر ، وأصحاب ابن وهب وأشهب ،

ورأيت بمكة علماء ، وعلماء من أهل بغداد قدموا إليها ، فوالله ما رأيت فيهم مثل سحنون ، ولا رأيت بعده .. » .

ـ وقال سليمان بن سلام : دخلت مصر فرأيت فيها العلماء متوافرين ، والحارث بن مسكين ، وأبا الطاهر ، وأبا اسحق البرقي ، وغيرهم .. ودخلت مكة وبها ثلاثة عشر محدثاً ، ودخلت غيرها من البلدان ، ولقيت علماءها ومحدثيها فما رأيت بعيني مثل سحنون ، وابنه (محمد) بعده .. » .

ـ وقال سعيد بن الحداد : جالست المتكلمين فكل من رأيت من أهل العلم فما رأيت منهم أصح غريزة من سحنون ، وكان وقوراً فيها .. »

ـ وقال يحيى بن عمر : لما قدمت الى سحنون ، فسألت عنه ، فقيل لي : خرج الى البادية . فجئته ، فرأيت رجلاً أشعر ، عليه جبة صوف ومنديل ، وهو مُتَنَوَّلٌ حرثه وشأنه ، فاستصغرته ، وندمت على تركي من تركت بالمشرق ومجيئي إليه . وقلت : ما أراه يحفظ شيئاً من العلم . فرحب بي ، فلما جالسته في العلم رأيت بحراً لا تكدره الدلاء .

والله العظيم : ما رأيت مثله قط ، كأنما جمع العلم عينه في صدره .. » .

ـ وقال أبو علي البصري : سحنون فقيه أهل زمانه ، وشيخ عصره ، وعالم وقته .. » ..

. . .

لقد كان سحنون سيد علماء عصره بلا نزاع .. وكان العلم في صدره محفوظاً كفاتحة الكتاب ، كما وصفه سليمان بن عمران ، .. فمن أين جاءه هذا العطاء ..؟.. أمن الأساتذة ..!.. فكم من تلميذ جلس بين يدي أفاضل العلماء ثم خرج بعد سنين جاهلاً كما دخل ....

السر عندنا في ذات التلميذ ، في نفسه ، في نيته وضميره •• لِمَ جاء يطلب العلم ••؟••

لقد وصل سحنون إلى ما وصل ، لأنه كان يسعى وراء غاية ، وصفها احد اساتذته الأعلام ••

كتب البهلول بن راشد إلى علي بن زياد يوصيه بسحنون ، ويحثه على العناية به وتعليمه ، ومما حواه الكتاب هذا النص : إني إنما كتبت اليك في رجل يطلب العلم لله عز وجل •• » •

ومن طلب العلم لله تعالى فتح الله سبحانه له من أبواب المعرفة والعلم مالا يكاد يوصف ••

وهكذا كان سحنون ••

تأمل هذه الكلمة التي جاءت حكمة على لسانه : « الحسن النية يصحبه التوفيق » • وصدق سحنون ••

وحين كان في حلقة ابن القاسم كان يسأل ، ويكثر السؤال ، والشيخ يجيب ويكثر ، لا يعرف الملل الى نفسه سبيلاً ، لأنه كان يجد أمامه طالب علمٍ يحفظ كل جواب سمعه من مرة واحدة فقط ، ولا يستعيد •• وكان الشيخ يعجب من ذلك

• • •

أشد العجب ، ويقول : « هو نور يجعله الله في القلوب •• » •

لقد صدق ابن القاسم ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ••! •

واذا كان هؤلاء الأعلام العظام قد شهدوا بسحنون بما نقلنا ، وصدقوا في ذلك ، فإن أهمّ أثر علمي تركه سحنون يدل على علو كعبه في دنيا العلم هو المدونة ••

والحديث عن المدونة ذو شجون ، لأنه يحملنا الى تاريخ المذهب المالكي ، وانتشاره في إفريقية ، وكيف انتهى الى عصر سحنون ••

وهذا ما سنحاول رسم ملامحه الكبرى إن شاء الله تعالى •••

المدونة

كان ابو حنيفة بدر علم وهدى .

وكان مالك بدر علم وهدى .

وكان كل منهما يستقطب المجتمع الإسلامي في عصره ..

اولهما في بيضة العروبة والاسلام ، دار الخلافة بغداد ، ملتقى الجاه والملك العريض الذي تظلله راية التوحيد الخفاقة من شواطىء الأطلسي الى شواطىء الهندي .. دولة لا تكاد تغيب عنها الشمس ، أكبر دول الأرض ، وأكثرها عزة ومنعة وسيادة ومجداً ..

وثانيهما في المدينة المنورة ، مدينة رسول الله ﷺ ، مهوى أفئدة الأمة ، كل الأمة ، تشد الى مسجدها الرحال للعبادة والزيارة ..

وكان كل منهما قد ورث علم الصحابة والتابعين الذين استقروا في العراق والحجاز ، وعنهما كانت تصدر الفتوى ، ويذاع الفقه والاجتهاد في سائر الأمصار ،.. ولكل منهما أسس فقهية مميزة ذات جذور تمتد الى نصوص الشريعة الغراء من قرآن مجيد ، وسنة مطهرة ، وإلى آثار كريمة عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ..

ونحن في هذا المقام لن نتحدث عن انتشار المذهبين المالكي والحنفي ، وعوامل ذلك ، والأماكن التي كان يسودها كل منهما ، وإنما نشير إلى أن العمل في المغرب العربي كان على المذهب الحنفي ردحاً من الزمن ، لأنه قبل كل شيء

مذهب رجال القضاء في دولة بني العباس ، وتلك سنة قاضي القضاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ..

وأما المذهب المالكي فإنه ظهر لأول مرة في المغرب العربي على يد إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة .. واما في تونس ، فإن علامتها الجليل علي بن زياد، شيخ سحنون ، هو أول من أدخل الموطأ الى تلك البقاع الحبيبة ..

ثم بدأ الفقه المالكي بالانتشار على يد بطل الاسلام ، فاتح صقلية ، القاضي أسد بن الفرات ، الذي وهبه الله سبحانه عقلاً فذاً جمع بين فقه أبي حنيفة وفقه مالك ..

ونحن نعلم أن أسداً ذهب في رحلة علم إلى مالك رضي الله عنه ، وأخذ عنه موطأه ، والكثير من فقهه .. وحين رأى الإمام الكبير ولع أسد بتفريع المسائل نصحه بالتوجه الى العراق حيث فقه الرأي ، فقبل أسد هذه النصيحة ، وغادر المدينة المنورة وفي أذنه قولة مالك « أوصيك بتقوى الله العظيم ، والقرآن ، ومناصحة هذه الأمة .. » .

وفي نصيحة مالك نلمس إخلاص الرعيل الكريم من علمائنا في طلب الحقيقة ، وحسن إرشادهم لتلاميذهم .. فإن مالكاً لما رأى حرص أسد على التفريع ، ونزعته العقلية للفرض والتخريج ، وأن ذلك يحسن عند أهل العراق ، أصحاب فقه الرأي ، أرشده مخلصاً ، ومحضه النصح من قلب مؤمن تقي ...

ليت لشبابنا أمثال مالك ..؟.. إذاً لتغير وجه التاريخ من جديد .. ..

توجه أسد إلى العراق ، وفي جعبته من علم مالك شيء وفير ، وهناك التقى بأبي يوسف ومحمد بن الحسن ، فأخذ أبو يوسف عنه الموطأ ، وأخذ هو عنهما فقه أبي حنيفة ، وشد الرحال بعد ذلك إلى مصر ..

عرض أسد المسائل الفقهية على ابن وهب وابن القاسم ، وهما سيّدا

المالكية ، وطلب منهما الإجابة عليها من قول مالك وفقهه .. أما الأول فأبى ذلك ، واما الثاني فاستجاب ، وأخذ يجيب عليها بما يحفظه من قول مالك ، فإن داخله الشك قال : أخال ، وأحسب ، وأظن .... » ..

وبعد ان ارتوى أسد من منهل الفقه المالكي عاد إلى المغرب يحمل ستين كتاباً تنطوي على ست وثلاثين ألف مسألة فقهية ، وقد سمي مجموعها بالأسدية ..

وفي المغرب ازدحم أهل العلم على مجلس أسد يأخذون من علمه الفياض ، ويستنسخون كتابه ، ومن هؤلاء كان سحنون ..

ولكن : هل تمثل الأسدية فقه مالك ..؟..

لو رجعنا إليها لوجدنا ابن القاسم يعطي الجواب على طائفة من المسائل ، ويجزم انه قول مالك ، وما بقي فله الشك والظن والحسبان .. وكتاب هذه حاله لا يمكن الركون اليه في تقرير المذهب ..

لذلك كان من فضل الله سبحانه على الفقه المالكي أن وفق سحنون للتوجه إلى مصر مرة أخرى حاملاً الأسدية ، لعرضها على شيخه الكبير ابن القاسم ، وليقرأها عليه قراءة العالم البصير ، والحاذق الخبير ..

أخذ ابن القاسم يعيد النظر بما في الأسدية مسألة مسألة ، ويعطي الجواب الصحيح الجازم في كلٍ منها ، ويزيد عليها مسائل لم تكن فيها .. وبعدها عاد سحنون إلى تونس مزوداً بكتاب من ابن القاسم إلى أسد بن الفرات يطلب منه عرض الأسدية على مدونة سحنون، فإن اختلفتا فالمعول على مافي مدونة سحنون.. إلا أن أسد بن الفرات رفض رسالة ابن القاسم ، وأصر على ما في مدونته ، فما كان من ابن القاسم الا أن قال : اللهم لا تبارك بما في الأسدية .. » ..

ثم إن سحنون أعاد النظر في مدونته ، ورتبها ونسقها بعد أن كانت مختلطة المسائل والأبواب حتى سميت لذلك بالمختلطة أيضاً ، وأضاف عليها الحديث

الشريف والآثار ، كما أضاف ما انتقاه من أقوال أصحاب مالك •• وبهذا غدت المرجع المعتمد في المذهب المالكي[1] ، حتى قال عنها ابن رشد •• إنها عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو ، وككتاب إقليدس عند أهل الحساب ، وموضعها من الفقه موضع أم القرآن تجزىء من غيرها ، ولا يجزىء غيرها منها » ••

• • •

واذا كانت مكانة المدونة ما رأيت ، فإن صاحبها في ذروة علماء المذهب ، حتى قال عنه ابن الحارث •• سحنون إمام الناس في فقه مالك •••• وقال أبو سعيد ابن عمر بن يزيد : أول ما تعلمت من العلم مسائل الصلاة من سحنون • ولئن قلت لك : إن سحنون أفقه من أصحاب مالك بن أنفس معلّميه كلهم ، إني لصادق ••••• وقال عيسى بن مسكين •• « لم يكن بين مالك وسحنون أفقه من سحنون •• » ••

هكذا فليكن أهل العلم ••؟•

---

(١) ان المذهب المالكي كان يؤخذ من الكتب الآتية :

- مدونة سحنون •
- الأسدية •• وقد تحدثنا عنهما •
- الواضحة : وقد كتبها عبد الملك بن حبيب الاندلسي •
- العتبية : التي جمعها محمد بن احمد العتبي • وتسمى ايضا المستخرجة ، لأنه استخرج مسائلها من الواضحة •
- الموازية : وهي لمحمد بن ابراهيم المعروف بابن المواز •

تواضع النجم

كان سحنون على علم بهذه النعمة الكبرى التي وهبها الله سبحانه وتعالى له ، ومع ذلك كان يزداد تواضعاً ، ليكون عبداً شكوراً ..

ما حال علمه بينه وبين العمل في أرضه ، وما حمله العلم على الغرور وحب الظهور ، وهما آفة العديد من الناس ..

ـ كان يحب الصمت ، حتى قال عيسى بن مسكين « كان سحنون صمته لله ، وكلامه لله . إذا أعجبه الكلام صمت ، وإذا أعجبه الصمت تكلم .. » ..

ـ وكان طويل الأناة ، كثير الرويّة قبل التصدي للجواب حتى يكون على يقين فيما يقول ..

وصف مرة نفسه فقال : إني لأسأل عن المسألة ، فأعرفها ، وأعرف في أي كتاب هي فيه ، وفي أي ورقة وأي صفحة ، وعلى كم هي من سطر ، فما يمنعني من الجواب فيها إلا كراهية الجرأة بعدي على الفتوى .. » ..

ومن رائع كلامه : أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً . يكون عند الرجل باب واحد من العلم يظن ان الحق كله فيه .. » .

وقال عيسى بن مسكين : قلت لسحنون : « تأتيك المسائل مشهورة مفهومة، فتأبى الجواب فيها .. فقال سحنون : سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال .. » ..

وقد صدف أن جاء رجل الى سحنون يسأله عن مسألة ، وعنده صديقه العالم الزاهد عبد الرحيم بن عبد ربه ، فسبقه عبد الرحيم بالجواب ، فسكت سحنون . فلما ذهب السائل قال سحنون : « نجد الرجل يصبر على الصيام والصلاة ، ويتورع ، فإذا جاءت الفتيا لم يصبر .. » .

قال القاضي عياض : « وسكوت سحنون عن جوابه دليل على صوابه •• »•

وفي مجلس أسد بن الفرات التقى عون بن رشيد وموسى الصمادحي وسحنون ، ودار الحديث حول مسألة فقهية طرحها أسد ، فأجاب عنها عون وموسى ، وسكت سحنون • فلما خرجوا تعرض سحنون للوم صديقيه ، فقال لهما : منعني أنكما بدرتما بالجواب ، فأخطأتما ، وكرهت أن أخالفكما ، فندخل عليه إخواناً • ونخرج أعداء •• » وبين لهما وجه الخطأ ، فشكراه ، ودعوا له بالخير والتوفيق ، واعترفا بالخطأ ، وعادا بعدها الى أسد ، فأخبراه برجوعهما عن الجواب وبقول سحنون ••

قال القاضي عياض مبرراً موقف سحنون « لعله عدل عن الجواب على ما عرف من فضلهما من أنهما إذا بين لهما وجه خطئهما رجعا ، فأعلما أسداً برجوعهما ، كما فعلا ، أو أن الحكم كان بعد لم يحن وقت نفوذه ، وإلا فهو في فضله وورعه كان لا يسكت عن مثل هذا إلا رجاء ان يستبين له الحق بلا تقلة[1] ولا مخالفة •• » •

وقد جاءه مرة سائل من بلدة الخليل في فلسطين ـ أعادها الله لحوزة المسلمين بفضله وكرمه ـ عن مسألة ، فلم يجب ثلاثة أيام ، والسائل يستعجل الجواب ، ويلح عليه فيه ، فما كان من سحنون إلا أن قال : « يا ابن اخي ، أبذل لك لحمي ودمي للنار ، ما أكثر مالا أعرف ، إن صبرت رجوت أن تنقلب بحاجتك ، وان أردت أن تمضي الى غيري ، فتجاب في ساعة واحدة •• » فرفض السائل تركه ، وبقي ينتظر حتى أتاه الجواب ••

وربما طالت فترة التردد والبحث ، حتى انه قال ذات مرة •• « انقفلت علي مسألة حتى أردت الرجوع إلى المدينة •• » ••

إنه العلم ، وكفى ••

---

(١) النقلة : النميمة • ومراده ان الامام يجهر بالحق متى استبان له ، لا حباً بالمخالفة ، ولا بقصد النيل من أحد •

أستاذ عملاق

كان سحنون يعتبر العلم كالهواء ، والماء ، والحياة ، حقاً للجميع ، وفي سبيل الجميع ..

اسمع قوله « ما ينبغي أن يمنع هذا العلم عن أحد .. » تجد مبدأ لم تعرفه الانسانية الا في السنين المتأخرة . أما عند علمائنا فهو من بدائه الأمور ، لأن ربهم سبحانه قد علم آدم عليه السلام ما حجبه عن الملائكة المقربين ، ولأن أول آية نزلت في قرآنهم المجيد فيها الدعوة الآمرة بالقراءة والعلم « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم . » ..

وهذا هو مفتاح الحضارة الاسلامية ، فهل يدركه قومي ، ويأخذونه بيمينهم من جديد ، ليعود لهم مجدهم التليد ..؟.

ـ وما دام سحنون يؤمن بذلك ، فعليه أن يبذل العلم لطالبه لا يسأله أجراً .. وكيف يسأله أجراً ، وهو القائل : إن أكل اموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من أكلها بالعلم والقرآن اذا احتاج الى ذلك . » .

استجداء الناس ، وتلقي صدقاتهم ، على ما في هذا من مرارة في النفس الأصيلة ، أولى وأفضل من أجر يأخذه عالم على علمه .. فتأمل ..

ـ ولم يكتف سحنون بذلك بل تجاوزه الى الأعلى ، فنراه ينفق على تلاميذه من ماله الخاص ، وكان ذلك عادة نسجلها باعتزاز لعلمائنا في المغرب ..

ـ كان اذا جلس للدرس جلس على أتم هيئة ، أنيق الثياب عليه سكينة ووقار ..

وقد قال ابراهيم بن شعيب يصف اللحظة التي كان يطل فيها سحنون على طلابه « كان سحنون يخرج علينا ، ونحن ننتظره في مجلسه ، فوالله ما علمته يسلم في مجلسه علينا قط . وفي خلال ذلك يمشي بالأسواق فلا يمر بأحد إلا التفت إليه ، وسلم عليه ، توقيراً للعلم وهيبة له عند طالبيه » .

وتعترينا الدهشة لترك السلام في أول الدرس ، وقد كان الرسول ﷺ يفشي السلام في الدرس وغيره ..

فإذا انتهى من الدرس طلب من ابناء العلم ان يقوموا قومة رجل واحد ..

ـ وكان اذا لمح بارقة ذكاء ونجابة واجتهاد من أحد الطلبة فرح بها ، وأبرزها ..

فهذا واحد منهم اسمه واصل بن عبد الله الحمّي قد تفوق في فهم القرآن الكريم وأجاد ، فكان يلقاه بالتحية ويقول : « وصلت والله يا واصل .. »

وكان يخبر تلميذه عبد الجبار السرتي بأنه صديقه ، وكان لا يبدأ الدرس حتى يحضر عبد الجبار تكريماً له .. وكثيراً ما كان يقول عنه : « عبد الجبار تقي في بطن أمه .. » .

ولقد روى القاضي أبو العباس عبد الله بن طالب التميمي انه تردد وهو طفل على مجلس سحنون . وفي أثناء الدرس ذكر الشيخ اسم احد العلماء ، وبعد أن مضى من الدرس اكثره سأل العالمُ الجليلُ الحضور عن اسم ذلك العالم فلم يجبه أحد فقال أبو العباس : « هو عمر بن حسين أصلحك الله .. » فقال سحنون: « بارك الله عليك ، أحسنت يا غلام ، إني أحب ان أرى عليك زي العلم . » قال أبو العباس : « فلم أزل أتردد الى سحنون وهو يقرئني حتى نفعني الله .. » .

وحين رأى في تلميذه جبلة بن حمود الصدفي النجابة والزهد قال : « ان عاش هذا الشاب فسيكون له نبأ ، وهو أزهد أهل زمانه .. » . ولقد عاش هذا الفتى، وكبر ، حتى غدا أحد عمالقة العلم والزهد في المغرب ..

ـ وكان شديد الحرص على تأديب طلابه ، يدرك ان العلم اذا لم يصحبه أدب وخلق كان شراً من الجهل ..

لقد كانت له نظرة في التربية نسجلها بكل فخار ، لأنها احـــدث نظرة في التربية الحديثة ، تلك التي تفخر بها الحضارة الغربية ..

قال لمؤدب ولده محمد : « لا تؤدبه إلا بالكلام الطيب والمدح ، فليس هو ممن يؤدب بالتعنيف والضرب ، واتركه على بختي ، فإني أرجو أن يكون إمـــام وقته ، وفريد زمانه .. » ..

وتشير هذه النظرة إلى :

= ضرورة معرفة نفسية الطفل لاختيار اسلوب التربية الأصلح ..

= ان اسلوب اللين ، واللطف من أبرز أساليب التربية القويمة .

= ان مدح الطفل في مواجهته باعث له على التقدم والاستفادة من العلم ، بالاضافة إلى تقوية شخصيته ، وتربية الثقة بالنفس ...

وليت علماء التربية يُنقّبون في كنوز الأجداد الأفذاذ من أهل الفكر والعلم في أمتهم ، إذاً لوجدوا الخير كل الخير ،.. فهل من مُنَقِّب ..؟..

● كان اذا رأى من تلاميذه مالا يأتلف والخلق الرضي ، والأدب الرفيع ، تألم أشد الألم ، وأنب واحتد ، ثم لا يلبث أن يعـــود الى هدوئه وسكينته ..، وربما اعتذر اذا كان التأنيب فيه بعض الشدة ..

فقد نهى طلابه عن الجلوس في الطرقات لغير حاجة ، لما فيه من كشف لعورات

الناس ، وتضييق للطريق عليهم ، ولما فيه من هدر للزمن وهو عماد العلم وقوامه ••

وصدف ان جاءته بضاعة ، فرأى أحد طلابه جالساً في الطريق ، فنهاه • وحين حاول القيام لم يستطع ، فتخطّاه سحنون •

وفي اليوم التالي خرج الشيخ الجليل الى الدرس ، وبدأه بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم • ثم وضع الكتاب ، وتبسم قائلا : « كبرنا ، وساءت أخلاقنا • ويعلم الله أني ما أصيح عليكم إلا لأؤدّبكم وما أريد بكم ، يعلم الله ، مكروهاً • إلا أننا ابتلينا بالقضاء عند الكبر ، ونحن أحوج ماكنا الى أنفسنا ، وما أريد الا لترعووا وتتفقهوا وتعملوا بما سمعتم •• » •

● وكان إلى جانب ذلك يغض الطرف عن بعض زلات الطلبة ، ويكظم غيظه •• والأستاذ الذي يرقب كل نأمة من طلابه ، والأب الذي يحصي على أولاده حروفهم وأنفاسهم ، ليصبّ عليهم نقده وتقريعه ، لا خير فيه ، ولا نفع على يديه يرجى لأحد ••

ان قلب الأستاذ ، وقلب الأب ، مضرب المثل للرحمة والعطف والحنان المقترن بالتوجيه والنصح والإرشاد ••

فقد جاء قوم من الأندلس الى سحنون ، ومعهم المدونة ، ورغبوا ان يسمعوها منه ، فقال لهم : « إني مشغول •• » فقال له شاب منهم : « إنا قد كتبناها فما نصنع بها ، لئن لم تسمعناها لنطرحنها في هذا الغدير •• » ••

كلمة جرحت قلب سحنون •• أتلقى المدونة في النهر ، وهو يرى ويسمع••؟• وما ذنبه هو ••؟•• أما يجدر بهذا الشاب الأرعن أن يعذر ••؟•• أفي كل دقيقة يجب أن يكون الاستاذ بين يدي طلابه ••؟••

ولكن ••• أليس في الشباب ما فيه ••؟••

حين سمع سحنون كلام الشاب تغير وجهه ، واربد ، وعض بنانه من الغيظ ،

ثم غاب قليلاً ، وعاد ، وقال لهؤلاء الوافدين : « إني لو احتجت اليكم في مثل هذه ــ ورفع شيئاً من الأرض ــ ما سوّى علمي عندكم شيئاً .. » .

وبدأ الدرس ...

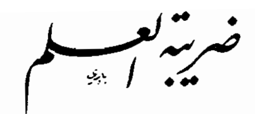
...

في مثل هذا الخلق نشأت ، وربت ثمار علمية رائعة كانت اسماؤها تلمع في دنيا العلم والعرفان ، حتى بلغ عدد طلابه سبعمئة طالب ..

قال ابن الحارث : مالت الى سحنون الوجوه ، وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد انمحى ما قبله . فكان أصحابه سرج أهل القيروان : ابنه محمد عالمها وأكثرهم تأليفاً ، وابن عبدوس فقيهها ، وابن غافق عالمها ، وابن عمر حافظها ، وابن جبلة زاهدها ، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحها ، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث وأشدهم وقاراً وتصاوناً . كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم .. » ..

وقال غيره : « ما بورك لأحد بعد رسول الله ﷺ بأصحابه ما بورك لسحنون في أصحابه ، فإنهم كانوا أئمة كل بلدة في العلم والخلق والأدب . » .

ولنتأمل قول سحنون حين كان يرى حوله جموع الطلاب من كل حدب وصوب « ما أريد منهم إلا لعل الله ينفعني بواحد .. » .. ولم ينفعه الله بهم فحسب ، بل نفع الأمة بهم أيضاً ...



أتعرفها ..؟. إنها المحنة .. ما يكاد عالم صدق يخلو منها ..؟.

لم كان هذا ..؟..

لأن العالم صوت الحق في وجه الظلم والباطل ، يندفع قوياً بالإخلاص ، فيصفع العتو والجبروت .. وهنا يولد الصراع الأبدي ، وللجور صولة ودولة..

ومن تأمل تاريخ علمائنا عليهم الرحمة والرضوان وجد للعديد منهم مواقف في وجه الطغيان والاستبداد هيهات ان تعرفها أمة من أمم الأرض ..

ولعل أشد محنة وأقساها في تاريخ الفكر الإسلامي تلك التي ظهرت في عصر المأمون ، الخليفة العباسي ، بسبب مسألة خلق القرآن .. إحدى مسائل المعتزلة ومبادئهم ..

ولقد كان الحوار بين المعتزلة والعلماء يجري حراً يقرع الحجة بالحجة ، قبل المأمون .. حتى اذا تربع على عرش الخلافة في بغداد رأى أن هذا الحوار لا بد له من اسلوب جديد ، وحروف جديدة .. وما هي إلا سنوات[1] حتى تغير الحوار فصار العنف يقرع العقل ، والسجن والتعذيب والنكال يواجه المنطق والفكر والكلمة الصافية ..

أراد المأمون حمل الأمة على القول بخلق القرآن ، فاستدعى العلماء واحداً

(١) كان المأمون يريد حمل الناس على القول بخلق القرآن لكنه كان يخشى يزيد بن هارون الواسطي ، ويحيى بن أكثم قاضي القضاة ، وهما من ائمة المعتزلة . وبعد ان توفي الأول سنة ٢٠٦ هـ وعزل الثاني سنة ٢١٧ هـ صفا له الجو ، وفعل ما فعل .

إثر آخر ، فمن ماشاه فيما رغب نجا ، ومن تردد أمهل ، ومن عارض عذب .

وكلنا يحفظ للإمام الجليل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه موقفه الرائع في وجه المنطق السلطاني ، لأن هذه المسألة بدعة وضلالة ، واذا لم يقف علماء الأمة في وجه الانحراف والضلال والطغيان فمن يقف ..؟.

ونحن نسأل : لم كان هذا الإرهاب الفكري ؟.. لم قام به خليفة يمثل ذروة من ذرى الانسانية وعياً وفكراً وعلماً وثقافة ..؟.. وما جدوى هذه المسألة أصلاً ..؟.. مادامت لم تأت عن رسول الله ﷺ ، ولا عن صحابته والتابعين لهم بإحسان ..

أهو فهم جديد ، أم انحراف جديد ..؟..

الجواب سيبقى ــ في رأينا ــ حلقة مفقودة في تاريخ الاعتزال ، لأن المصادر التي بين أيدينا لا تقدم لنا تعليلاً مقبولاً يبرر موقف الخليفة ومن حوله من المعتزلة[1] ..

• • •

ونحن سنبرح بغداد تاركين سياط الخليفة وزبانية الفكر وجلادي حرية العقل تنهال على ظهر امام السنة ابن حنبل ، وتتجه الى تونس ، الى دولة بني الأغلب ، فنرى الأمير زيادة الله يحمل الناس على الاعتزال ، وكلنا يعرف ان الأمراء تبع لكبيرهم في العاصمة، فمن استجاب، والا فقد ثكل السعادة والأمن والحرية..

تصدى عالمنا سحنون للفكر الأميري ..

ــ ترك صلاة الجماعة في مسجد القيروان ، لأن إمامه معد بن عقال كان يقول بخلق القرآن ..

---

(١) الكتاب الذي وجهه المأمون سنة ٢١٨ هـ (منشور في الطبري حوادث سنة ٢١٨) تضمن اعلان الخليفة بانه انما اراد حمل الناس على القول بخلق القرآن حفظا للدين الحنيف وحماية للعقيدة من الزيغ والانحراف ..

ونقول : لا تثبت الدعوى بغير دليل ..!.

ــ رفض الصلاة خلف قاضي القضاة عبد الله بن ابي الجواد ، لأنه كان يقول بخلق القرآن ••

ــ ولعله كان في مجالسه يشنع ويجرح الفكر الاعتزالي •••

كل هذا أغضب الأمير اشد الغضب ، فأصدر أمراً بضرب سحنون خمسمئة سوط ، وبحلق لحيته ورأسه •• فما كان من وزيره علي بن حميد الا أن حذره من نقمة الناس ، ومن غضب الله تعالى واخبره بأن الله سبحانه قد أهلك والي تونس السابق محمد بن مقاتل العكي حين ضرب العالم الجليل البهلول بن راشد ، وهو أحد شيوخ سحنون •• وما زال ابن حميد يقنع اميره حتى عفا عن سحنون ••• وما ان عرف شيخنا الجليل بما جرى حتى قال : « لم أبلغ انا مبلغ من يضرب •• انما يضرب مثل مالك وابن المسيب •• » ••

وحين اغتصب السلطة الأمير احمد بن الأغلب (٢٣١ ــ ٢٣٣ هـ) استحدث ديوان التحقيق للتنكيل بكل من لا يقول بخلق القرآن ، فتوجه سحنون الى رباط صديقه العابد الزاهد عبد الرحيم بن عبد ربه مختفياً ومترقباً •• إلا أن الأمير أحمد أرسل واحداً من أشرس أعوانه يدعى ابن سلطان للقبض عليه ••

التقى ابن سلطان وسحنون ، وفي الحوار بينهما سبر لأغوار النفس البشرية، ولذا آثرنا تسجيله كما حفظه لنا التاريخ ••

قال ابن سلطان : « وجّهني الأمير اليك ، وقصدني لبغضي فيك لأبلغ منك، وقد حالت نيتي عن ذلك ، وأنا الآن أبذل دمي دون دمك ، فاذهب حيث شئت من البلاد ، أو أقم فأنا معك •• » ••

موقف محير •• فيه سلامة النفس مقرونة بأذى الغير ••

فما الذي اختاره سحنون ••؟••

قال سحنون بعد ان شكر ابن سلطان : « ما كنت أعرضك لهذا ، بل أذهب معك •• » وخرج ، فشيعه أصحابه ••

وإن تأملت ، أخي الحبيب ، موقف ابن سلطان عرفت كم كـان للعلمـاء المخلصين من توقير في نفوس الناس ، حتى ولو كانوا أعوان الطغـاة •• وعرفت أيضاً ان النفس التي تنطوي على بذرة خير لا بد ان تكشف عنها في يوم من الأيام، وفي موقف من المواقف ••

وصل سحنون قصر الأمير ، فوجد ابن ابي الجواد والحاشية والأعوان ممن يسبحون بحمد السلطان ••

سأله الأمير عن القرآن : أمخلوق هو أم لا ••؟• قال سحنون : امـا شيء ابتدئه من نفسي فلا ، ولكنني سمعت من تعلمت منهم وأخذت عنهم يقولون : « القرآن كلام الله غير مخلوق •• » ••

وهنـا انبرى ابن ابي الجواد وقال بحماس منقطع النظير : « كفر ، فاقتله ودمه في عنقي •• » •• وكذلك قال كثير من الإمّعات الذين في المجلس ••

بيد أن احد الحضور نصح الأمير بالكف عن الدم ، فأمر بفرض الاقامـة الجبرية على سحنون ، وسجنه في منزله على ان لا يتصل بالناس ، وأخذ على ذلك الكفـلاء ، ونادى في القيروان بتحـريم استفتاء سحنـون وتلقي العلم عنـه والاتصال به ••

ذهب العالم الى بيته سجيناً صابراً محتسباً ، إلا ان هذه الحال لم تطل ، فقد آل الأمر إلى الأمير محمد ، فعفا عنه •• ويظهر أن هذا الأمير لم يكن من أهـل البطش اذ لم يعرف عنه انه حمل شخصاً على فكرة الاعتزال مع ان المعتزلة عمـاد إمارته ولهم دولة وصولة ••

وقد بقي حقد المعتزلة على سحنون كامناً في الصـــدور لم يترجم بجلد أو نَكال ، وإنما ظهر بلحظة غير مشرفة .. فحين توفي سحنون خرج الأمير في جنازته يحيط به المعتزلة ، وفي الصلاة عليه تقدم الأمير فصلى ، وامتنعوا هم عن الصلاة عليه وقالوا للأمير : « قد علمت ما بيننا وبينه ، وانه يكفرنا ونكفره ، وإنما خرجنا طاعة لك .. » ..

أخلاق العالم

عرفت سحنون العالم الكبير ، ألا تريد أن تعرف رجل الأخلاق التي عز لها نظير ..؟..

● كان كثير التهجد ، فكم رأته عين الليل واقفاً بين يدي الله سبحانه يطيل القيام والسجود والدعاء .. وكان على ذلك كثير الخشية للذات العلية ، خشية الصالحين العارفين ، وهؤلاء هم اكثر الناس خوفاً من الله سبحانه ، لأنه على قدر المعرفة تكون الخشية .. ومما جاء في جوامع الكلم النبوي انه ﷺ قال : « إني لأعبدكم لله وأخوفكم من الله .. » ..

ـ ألح عليه ابنه محمد سائلاً : أمن تنوخ نحن صليبة ؟. « فكان الجواب : نعم . وما يغني عنك ذلك من الله شيئاً إن لم تتقه » .

قبس من نور النبوة يذكر معه المؤمن قول رسوله العظيم صلوات الله وسلامه عليه لابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها « يا فاطمة لا أغني عنك من الله شيئاً .. » ..

ـ ولقد بلغ بالعبادة حداً قال في وصفه عيسى بن مسكين « سحنون راهب هذه الأمة »[1] ..

● كان ورعاً ، تقياً ، وقّافاً عند حدود الحلال والحرام ..

---

(١) نحن لا نستسيغ هذا الوصف ، لان كلمة « راهب » ذات مدلول معين عند غير المسلمين . ونبرأ الى الله تعالى من نعت المسلم بنعوت خاصة بغير المسلم ، لما في ذلك من مساس بالشخصية المتميزة للامة المسلمة .

ولقد حدثني علامتنا الكبير السيد محمد المنتصر الكتاني بأن هذا النعت لا يثير شيئا في المغرب وهو مقبول ، لأنه ليس فيه أصلا الا المسلمون ..

ـ تأمل قوله الرائع : « من فقه الرجل مطعمه، ومشربه، ومدخله، ومخرجه، وصحبته لأهل الخير ، وليست العبادة بطأطأة الرأس •• » ألست واجداً فيه معنى عجباً ••؟• فالعبادة إن لم تأمر بالمعروف ، وتنه عن المنكر ، وتنزع صاحبها من وحل المعاصي ، وأدران الذنوب ، وترفعه الى العلى ، فليست بعبادة ، قصرت أم طالت ، قلّت° أم كثرت •• فكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش •••

ـ ومن جيد كلامه : « قليل من العمل مع الورع كثير •• » ••

إنه دعوة الى العمل والبناء ، أليست العبادة دعوة للعمل البنّاء ، لسعادة الإنسان ، والمجتمع ، والبشرية ••؟••

ونحب أن نؤكد أن سيرته الذاتية تطبيق لما يقول ، وربما اشتد على نفسه في ذلك ، وسنرى فيما بعد أنه حين ولي القضاء لم يأخذ عليه أجراً ، وهو له حلال ، وما حمله على هذا إلا الورع ••!•

ـ كان في بعض الأحيان يفتي الناس بإباحة شيء من الأشياء ، وهو يترفع عنه •• وكان يقول في تعليل ذلك : « إني لأتقيه في خاصة نفسي ، ولا أحب أن أضيق على الناس •• » •

إنها وقفة في الحياة يأخذ العالم فيها نفسه بالشدة والحزم والعزم والورع الخالص •• وأما الناس فإن فيهم من لا يقدر على ذلك ، ولهذا وجب عليه أن يكون رفيقاً بهم ، يرشدهم إلى الحلال ، ولا يضيق عليهم الخناق ، ويخوفهم من الحرام شفقة عليهم حتى لا يقعوا في جحيم المعصية ، وعذاب النار الأليم ••

وكم في السيرة العطرة ، سيرة سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه من أمثلة رائعة في هذا المجال •• هؤلاء هم العلماء •• أليسوا ورثة الأنبياء ••؟• ومن كان من ورثة النبوة فليفعل هكذا ، وإلا فقد حرم عليه ذلك الإرث ••

ـ ومن كلامه : « من لم يعمل بعلمه لم ينفعه العلم بل يضره . وإنما العلم نور يضعه الله تعالى في القلوب ، فإذا عمل به نوَّر الله قلبه ، وإن لم يعمل به وأحب الدنيا أعمى حب الدنيا عليه ، ولم ينوِّرْه العلم .. » .

ألا يذكرنا قوله بالآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون، كبر مقتاً عند الله ان تقولوا مالا تفعلون .. » ..

والمقت أشد الغضب ، وأي إنسان في قلبه ذرة من إيمان يرغب بأن يذهب بغضب الله العزيز المنتقم الجبار ..؟..

إن العجب كل العجب من قائل فعله صفعة لقوله ، وخلقه تكذيب لدعوته ، هو حمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم في الناس ..

● كان من الصابرين ، الراضين بقضاء الله ، وقدره ..

ـ فقد جلس يوما كئيب النفس ، لا يعرف لذلك سبباً ، وحوله طلابه وأحبابه لا يكلمهم ، ولم يطل عليه ذلك حتى دخل عليه خادمه يخبره بموت الزوجة ، وبموت الخادمة ، وبأن الريح العاصف قد أتت على مئة وخمسين شجرة زيتون..

أصغى سحنون للخادم حتى انتهى من كلامه ، فما كان منه الا أن قال لمن حوله : « إن الله يخلف ما ذهب .. » ..

لقد كان قلبه يردد هذه الآية : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » .

ولقد كان خاطره مع الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل ، فالأمثل . يبتلى الرجل بحسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء .. » .

ونحن نعرف من هدي الإسلام أن على المسلم أن يشق طريقه في زحمة الحياة

بعزيمة صادقة ، وهمة شمّاء ، ونفس واثقة بالله سبحانه ، وبذاتها ، مشبعة بالعمل المخلص ، والأمل والرجاء ، فإن أصاب خيراً حمد ربه جل جلاله ، لأنه المنعم المتفضل بيده الخير كله ، وإن أصيب بغير ذلك صبر ، لأن ما يجري في هذه الحياة إنما هو بقضاء وقدر ، وقد رفعت الأقلام ، وجفّت الصحف .

ـ وما أحلى كلمة سحنون التي كان يرددها كلما ضاقت عليه الأمور « ضيقي تنفرجي ، يا مالك يوم الدين ، اياك نعبد وإياك نستعين .. » .

● كان رقيق الشعور مرهف الحس ..

ـ يبكي اذا سمع بموت شيوخه ، ويشتد بالبكاء ، ويعمر قلبه الحزن عليه عرفاناً بفضله ، وألماً لفاجعة العلم به ، لأنه لا يموت الا بموت العلماء ..

ـ وكانت تنهمر دموعه اذا قرأ شيئاً من الزهد ، أو من سير الزهاد ، أو من مغازي رسول الله ﷺ ، او من حروب المسلمين المجيدة ..

واذا مرت به آيـة من كتاب الله سبحانه فيها ذكر النار والعـذاب أجهش وانتحب .. فقد قال مرة لرجل : اقرأ علي الآيـة : « ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار[1] ... » فقرأها ، فلما بلغ : فستذكرون ما أقول لكم قال : حسبك ، وهو يبكي ..

● كان ودوداً للناس ، محباً لهم .. وكيف لا يكون كذلك وهو يعلم انهم عيال الله ، وأن أحبهم إليه سبحانه أنفعهم لعياله ، وأن المؤمن لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ..

ـ لهذا كان يعلم ولده محمداً فيقول : « يا بني سلِّمْ على النـاس ، فان

---

(١) « ويا قوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم وانا ادعوكم الى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا الى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وافوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » المؤمن ٤١ ـ ٤٤ صدق الله العظيم .

السلام عليهم يزرع المودة في قلوبهم ، وسلّم على عدوك ، فان رأس الإيمان بالله مداراة الناس •• » •

ــ كان يزور الناس ، ويتفقد أحوالهم ، ويعود من يعرف من المرضى • وكان في ذلك يعظهم ويرشدهم الى الصلاح والهدى ••

دخل مرة على مريض فوجده قلقاً ، فقال له : ما هذا القلق الذي أنت فيه••؟•

قال المريض : الموت •• والقدوم على الله عز وجل ••

قال : ألست مصدقاً بالرسل أولهم وآخرهم ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، وأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ابو بكر ثم عمر ، وان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وان الله يُرى يوم القيامة ، وانه على العرش استوى ، ولا تخرج على الأئمة وإن جاروا ••؟•

قال المريض : اي والله الذي لا إله إلا هو ••

فضرب سحنون بيده على كتف المريض ، وقال له : « مت اذا شئت ، مت اذا شئت •• » اي على الإيمان الحق ••

انها تقوية الثقة بالله عز وجل في أحرج لحظة في الحياة • فيها يتزعزع إيمان الكثير إلا الذين يتفضل الله سبحانه عليهم ، فيمنحهم الثبات بالقول الثابت في الدنيا والآخرة •• هي لحظة فيصل ، ولا شك ••

ــ كان يرشد الناس الى ما فيه صلاح معاشهم ، كما يرشدهم الى ما فيه صلاح معادهم ••

فمن كلامه : ماأحب ان يكون عيش الرجل الا على قدر ذات يده، ولا يتكلف إلى أكثر من ذلك • وإن احتاج امرأة طلبها على قدر ذات يده في مؤنتها وقناعتها حتى يبقى في يده ما يستغني به • فان كان له مال حلال اعتمد عليه وتفرغ للعبادة ، واذا لم يكن عنده فعليه بكسب يده فذلك أولى من مسألة الناس •

هي دعوة بليغة يتصل نورها بآية من كتاب الله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قـُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله سيجعل الله بعد عسر يسراً » .

هي دعوة هادفة للعزة والكرامة ، فالعمل ، مهما كان ، خير وأحب وأكرم للمرء الشريف الشهم من سؤال الناس أعطوه أو منعوه .. وهل يقبل هذا ذو كرامة أو مسحة من رجولة ..؟.

وما أحلى نظرته الى الحياة العائلية حين يحث على ان تكون نفقات الزواج من مهر وأثاث سهلة يسيرة حتى تعيش الاسرة في ستر الله تعالى وفي رعايته ، وتنعم بالسعادة الزوجية والعيش الكريم .. وفي الحديث الصحيح : « أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة .. » .

● كان كثير الصدقات ، كثير الثقة بالناس ..

ـ فقد باع مرة زيتوناً بثمانمئة دينار ، فدفع المال إلى شخص ، وكان يبعث له بالرقعة تلو الرقعة ان يدفع لفلان كذا ، ولفلان كذا ،.. صدقة منه عليهم .

وعندما نفد المبلغ جاءه الشخص بالرقاع ، فقال له سحنون : ما هذه ..؟. فأعلمه الشخص بها . فقال سحنون : أبقي من ذلك شيء ؟. قال : لا . قال سحنون : « اذا فرغ المال فلماذا أحاسبك ؟. » ثم رمى بالرقاع ...

ـ قال ابن معتب : « كان سحنون يتصدق على الرجل الواحد بالمال الذي تجب فيه الزكاة ، الثلاثين ديناراً ، أو أكثر .. » .

ـ وقال عبد الله بن سعيد الصائغ : دفع سحنون يوماً لرجل صرة دنانير ، وهو في بيته ، ثم قال له : « اذهب فأول من تلقاه ادفعها اليه .. » ، فجعل الرجل يتخلل الأزقة ، إذ برجل عليه ثوب أبيض ، وتحته شيء يحمله ، فدفع إليه الصرة ، فلما أخذها ألقى الذي بيده ، وقال : « هي ميتة كانت لنا حِلاً ، فحرمت الآن علينا .. » ..

فكانت فراسة من سحنون .

ـ قال العنبري : كانت غلة سحنون في زيتونه خمسمئة دينار في السنة ، فما تنقضي السنة إلا والديون عليه لكثرة صدقته ومعروفه ..

ـ وقال محمد بن عبد الله الرعيني : « لما سرت الى الغزو في صفاقس مع سحنون فتح لنا مطمورة شعير لعلف دوابنا ، فما كنا نأخذ منها بكيل ، سماحة منه في ذات الله .. » .

ـ كان يؤمن ببساطة الحياة والمعيشة ، زاهداً بها ، وبكل ما فيها من متع ونعيم ..

ولذلك فقد كان يأكل خبز الشعير ، والزيت ، ويحمد الله تعالى على نعمه ..

وكان أثاث بيته بسيطاً ، حتى قال ابن بسطام : « دخلنا عليه في مرضه الذي مات فيه ، وعند رأسه حقيبة ، وما في بيته إلا الحصير .. » ..

كانت هذه حياته ، مع أنه من أهل الثراء والأموال .. فقد كان له اثنا عشر ألف شجرة زيتون ، الشجرة المباركة .. وهذه ثروة كبيرة ، إلا ان ما انتهى اليه كان لكثرة صدقاته ، وإنفاقه على طلبة العلم ، وورعه عن قبول أجر على القضاء ، وترفعه عن عطايا الأمراء وذوي السلطان .

رحمة الله عليه ، لقد كان في الأخلاق نسيج وحده ..

تلك هي خلق العلماء بحق ..



في تاريخ الاسلام قضاة سيرتهم تعطر الأيام ، واسمهم ترنيمة على كل لسان ٠

حسبهم انهم أنصار الله ، والحق ، والعدل والمظلوم ٠٠

أولئك آبائي آتيه باسمهم وأفخر ٠٠

واحد من هؤلاء سحنون ٠٠

الأمر بالتعيين

كان ابن ابي الجواد يهرب الحق من حكمه ، ويعشعش الباطل في مجلسه ويرتع .

ولكن من يقدر على الشكوى ..؟.. والفكر الاعتزالي حبل متين يشد القاضي الى الأمير ويشدهما معاً الى خليفة بغداد ..

وكان سحنون يرى ، ويسمع ، وليس له إلا الدعاء ، ومن كلامه : « اللهم لا تمتني حتى أراه بين يدي قاضٍ عدل يحكم فيه بالحق .. » .

وأخيراً بلغ السيل الزبى ، فكان قرار الأمير محمد بعزل قاضيه الكبير ابن ابي الجواد ، وذلك سنة ٢٣٢ هـ .

ولكن من يخلفه ..؟..

قيل للأمير : ما يستحق أحد القضاء وسحنون حي يرزق ؟..

ولكن : هل يقبل الشيخ الوقور القضاء ، وفيه ما فيه ، ولا يعرف أحد أعباءه الا بعد ان يلبس ثوبه ؟..

فاتحه الأمير برغبته ، فقال له : « أصلح الله الأمير لا أقوى عليه ، ولكن أدلك على من هو أقوى سليمان بن عمران .. » ..

بيد أن الأمير لا يريد إلاّ إياه ، وما عليه إلا أن ينتظر ، ويحاور ، ويداور ليصل الى ما يريد ..

واستمر الحوار بين الأمير وسحنون سنة كاملة حتى ظن أن الأمير قد أعفاه وقبل عذره ..

وأخيراً .. جاء الحلّ ..

استدعى الأمير سحنون ، فقال : تدري لم بعثت لك ..؟..

قال : لا

قال : لأشاورك في رجل قد جمع الله فيه خلال الخير أردت أن أوليه القضاء، وألمّ به شعث هذه الأمة ، فامتنع ..

قال : يلزمه أن يلي ..

قال : تمنع ..

قال : يجبر على ذلك ..

قال : تمنع ..

قال : يجلد ..

وعندها قال الأمير : قم فأنت هو ..

قال سحنون : ما أنا الذي وصفت ...

وتمنع ، فأخذ الأمير بمجامع ثيابه ، وقرب السيف منه ، فلم يزل بـه الأمير حتى قبل ...

فلم قبلت يا أبا سعيد ، وأنت تعلم أمر القضاء ومسؤولية الحكم ..؟..

قال سحنون : لم أكن أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير ضمينان :

أحدهما : انه أعطاني كل ما طلبت ، وأطلق يـدي في كل ما رغبت حتى أني قلت له : أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانهم فإن قبلهم ظلامات للناس وأموالا

لهم منذ زمن طويل إذ لم يجترىء عليهم من كان قبلي • فقال لي : لا تبدأ إلا بهم، وأجر الحق على مفرق رأسي •• فقلت له : الله ••• قال لي : الله •• ثــلاثاً •• وجاءني من عزمه مع هذا ما يخاف المرء منه على نفسه ، وفكرت فلم أجد أحــداً يستحق هذا الأمر ، ولم أجد لنفسي سعة في رده ••» • وكان الضمين **الثاني** : أن لا يأخذ سحنون لنفسه رزقاً ولا صلة في قضائه ••

قال للأمير معتذراً عن قبول الكسوة والصلة التي تقــدم عادة للقضــاة : « والله لو ملأت مجلسك هذا لي دراهم ودنانير ما سألني الله ان أقبل ذلك ، ولو أخذته لجاز لي ، ولكنه تورع •• » ••

وصدر امر التعيين في الثالث من رمضان المبارك سنة اربع وثلاثين ومئتين للهجرة[1] ، وسحنون في الرابعة والسبعين من عمره الميمون ••

• • •

قلّبْ ، أخي الحبيب ، صفحات التاريخ في سجل الأمم ، فهل تجد أعجب من قرار تعيين سحنون في القضاء ••؟••

تعجب لهذا الفقيه الورع كيف يقبل القضاء حين لم يجد في مجتمعه من يصلح له غيره •• لقد اعتبر القضاء فرض عين عليه بعد ان كان فرض كفاية •• ان المسلم الحق لا يعرف الفرار من معترك الحياة متى دعي لخوض غماره ••

وتعجب له أيضاً كيف أعرض عن راتب القضاء ، وهو مما تتحلب له الشفاه •• انه اعظم مرتب في الدولة بعد الأمير ••

وتعجب للأمير صاحب السلطة المطلقة ، المستبد الذي لا تخرج كلمته الا على رأس حربة ، كيف كان يسهر على أمر رعيته ، وكيف كان يؤرقه انتقاء القاضي الكفء ، لأنــه يعلم ان في انتقائه استقراراً لمعاملات النــاس وحفظاً لحقوقهم

---

(١) ذكر ابن العذاري ان ولاية سحنون للقضاء كانت سنة ٢٣٣ هـ •

وكرامتهم ودمائهم •• وان بلاداً لا يكون الانسان فيها مصون الحرية والكرامة والعرض والشرف والمال لا خير فيها ••

وتعجب له أيضاً كيف أصبح بين يدي القاضي الذي وجده •• لقد خضع له ، حتى طلب منه ان يجري الحق والنظام على مفرق رأسه فضلاً عن أهله وحاشيته وأعوانه •• وقد أقسم بالله ثلاثاً على ذلك ••

فأي أمير كان هذا الأمير ، وستجد في الصفحات التالية ما يزيدك به اعجاباً وله اكباراً واجلالاً ••

فهل في الانسانية عبر العصور قاض كسحنون، وأمير كمحمد بن الأغلب••؟••

انه التاريخ المجيد ، فلنقبل عليه ••!•

• • •

قبل سحنون ولاية القضاء وفق شروط سامية عرفتها قبلاً ، ولكن هذا لا يروق لبعض الناس الذين يرون في الهروب من زحمة الحياة غنيمة وسلامة ، يستوي في ذلك من قدر على تحدي الصعاب والثبات والاخلاص ، ومن لم يقدر •••

من هؤلاء صديقه الأثير الذي التجأ اليه حين المحنة ، الزاهد العابد المرابط عبد الرحيم بن عبد ربه •• فقد كتب رسالة الى سحنون يبدي استغرابه من قبول وظيفة القضاء ، وكيف انه عرض دينه للخطر ، ونفسه للنار ••

فكان جواب سحنون :

أما بعد :

فقد أتاني كتابك تذكر فيه اني جعلت قاضياً • فاعلم يا أخي اني لم أزل

قاضياً منذ أربعين سنة . وقد حدثني ابن وهب حديثاً يرفعه : إن المفتي قاض يجري قوله في أشعار الناس وأبشارهم[1] ..

واما قولك : إنك عهدتني أفقههم في الدين ، وأنظر لهم في أخراهم ، وقد صرت أنظر في أمر دنياهم .

فاعلم رحمك الله تعالى انه لا تصلح لهم أخراهم حتى يصلح لهم أمر دنياهم ، آخذ لضعيفهم من قويهم ، ومن ظالمهم لمظلومهم ..

وبعد هذا فقد ابتليت فعليك بالدعاء ألزمه لي نفسك .

والسلام عليك .

. . .

نظرة في الحياة .. واحدة ترى ان الصلاح هو الهرب من الحياة ، والعزوف عنها ، ولو لمن كان على بينة من أمر ربه سبحانه ومن شريعته ..

وأخرى ترى الصلاح كل الصلاح في دخول معترك الحياة ، في شارعها ، وفي احداثها ، وفي خضمها المتلاطم لمن كان قادراً على ذلك ...

في النظرة الأولى سلامة ، وتعطيل ..

وفي الثانية بناء وعمل وجهاد وثواب وعبادة .

ونحن ما عرفنا النظرة الأولى لأحد من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى .. فقد كانوا جميعاً فرساناً في الشارع والأرض والسوق والحرب والدولة والاقتصاد .. كل منهم أسد في ميدانه .. فاذا جن عليهم الليل رأيتهم عبّاداً تتورم منهم الأقدام لكثرة وقوفهم خشّعاً بين يدي الله جل جلاله ..

---

(١) العبارة وفق مصطلح الحديث توحي بان هذا القول مرفوع لرسول الله ﷺ ، إلا اني لم اجده ..

بفضلهم انتشر الاسلام ، وبلغ مشرق الشمس والمغرب ، وبهم قامت دولة الاسلام ومجد الاسلام وحضارة الاسلام ..

وجميعهم غرس طيب الجنى لنظام الاسلام الذي هو حياة ، وبناء حيـاة ، وروعة حياة ..

ويأبى الله سبحانه الا ان يظهر هذا الدين أبد الدهر على يد المؤمنين الذين يبنون الحياة ، ولا يهربون من زحمة الحياة ..

فرحة وكآبة

أما الفرحة فكانت سافرة على وجوه الناس الذين أكل الجور والظلم حقوقهم ، وقد رأوا في سحنون نعمة كبرى تفضل الله سبحانه عليهم بها ليرد لهم ما فاتهم ، وليعيد للحق الجريح اعتباره وعافيته ..

فرحوا لأن العدل ولد من جديد ، وهلّلوا وكبروا بعد أن استيأسوا وظنوا ان الدنيا قد خلت من أهل الصلاح والاصلاح ، فاذا بالفجر يطلع بعد ليل مُدْلَهِمّ . ان لليل الجور والطغيان آخراً ونهاية .

وأما الكآبة فكانت لسحنون ، لنفسه الشفافة التي تعرف وزر القضاء ومسؤوليته ، فهو لذلك في حزن وأسى لا يكاد يوصف ..

من رآه بعد أمر التعيين هاب أن يهنئه .. وفي بيته استقبلته ابنته خديجة ، وكانت على جانب عظيم من العلم والتقى والورع ، فقال لها : اليوم ذبح أبوك بغير سكين ..

وقد جاءه عون بن يوسف فقال له : « نهنئك أو نعزيك .. ثم سكت .. ثم قال : انه بلغني أنه من أتاها من غير مسألة أعين عليها ، ومن أتاها عن مسألة لم يعن عليها .. » . فقال له سحنون : « من ولّته الشفاعة عزلته الشفاعة ، ومن ولته الشفاعة حكم بالشفاعة .. » .

في سير المحاكمة

● كانت جلسات المحاكمة تجري في المسجد الجامع ، وقد رأى سحنون ان يبني بيتاً خاصاً لذلك •• وكان الناس يجلسون لرؤية المحاكمة ، تطبيقاً لمبدأ علنية الجلسات والتقاضي الذي يعرفه رجال القانون ، ويعدونه من مفاخر العدالة ••

وفي الزحام كان سحنون يأمر بالابقاء على أطراف الدعوى والشهود واخراج بقية الناس من المجلس ••

● كان سحنون يرسل بطاقة الدعوى مع المدعي كي يسلمها الى خصمه ، وفيها دعوته الى جلسة المحاكمة ، فاذا حضر الخصمان أخذ رقعة الدعوى ••

● كان يستمع الدعوى ودفعها • فاذا رأى أحد الخصمين قد لج في الخصومة ، أو وجه لخصمه نابي الكلام ، أو تعرض للشهود ، او انحرف عن ادب المرافعة ، كان نصيبه التعزير ••

وقد حدث في اثناء احدى الدعاوى أن حلف أحد الخصمين بالطلاق ليستوفي حقه من البستان المشترك بينهما ، فنهره سحنون ، وقال له : لا تحلف بالطلاق ••

● كان اذا رأى من الشاهد اضطراباً ، أو فزعاً أعرض عنه ، وتلهى حتى يسكن روعه ، فان طال ذلك به قال له بأدب وتواضع : ليس معي سوط ولا عصا ، ولا عليك بأس •• أدِّ ما علمت ودع مالا تعلم •••

يذكرنا هذا بما كان يفعله رسول الله ﷺ حين يرى الروع بادياً على احد الناس •• كان يقول له : « هون عليك ، فاني لست بملك ، انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد •• » •

● كان يحاول الستر على الكرام من الناس ، ولا سيما أهل العلم •• لأن الخصومة بينهم تورث الحط من الأصالة والعلم ، فلا تليق بهم أصلاً ••

قال ابنه محمد : تخاصم اليه رجلان صالحان من أصحابه ممن نظر في العلم، فأقامهما ، وأبى ان يسمع منهما ، وقال : « استرا عني ما ستر الله عليكما •• » •

● وكان يقيم الحدود خارج المسجد ، وأما التعزير فكان ينفذه فيه •

● وكانت الودائع توضع في بيوت القضاة حتى نهاية الدعوى ، فأمر سحنون بوضعها عند أمناء يعيَّنون لهذه المهمة ، كما هي الحال في العصر الحاضر ••

وكان سحنون أول من فعل ذلك ••

فصل السلطات

وكان سحنون يدرك ان وظيفة القضاء إحقاق الحق وتطبيق الشريعة ، وليس للقاضي ان يتدخل في شؤون السلطة السياسية ..

وكان يدرك انه لا يجوز للقاضي ، ولا للعالم ، أن يكون بوق السلطة ولسان دعوتها . لأن في ذلك ضياعاً لهيبة العالم والقاضي ، وفي ضياعها خراب العلم والعدل ..

كل هذا اعتبرته الحقوق الحديثة من مفاخرها التي ورثتها عن مونتسكيو الفيلسوف الفرنسي الكبير .. بينما هي من تراثنا لو وعينا قيمة تاريخنا وسن صنع ذلك التاريخ ..

لنتأمل هذه القصة التي تدل على ما قلنا ..

ثار القويبع الخارجي على محمد بن الأغلب ، فأشار بعض قواد الأمير عليه بأن سحنون داعية مطاع ، ومن الخير للأمير ان يأمره بالدعاية له في حرب هذا الخارجي ..

بعث الأمير اليه ، وأعلمه بالأمر ، واستشاره بالقتال وحض الناس عليه وتحريضهم .. فقال سحنون : غَشَّك من دلَّك على هذا .. متى كانت القضاة تستشار في صلاح سلطان الملوك ..؟.

ونهض من عنده ، ولم يزد ..

القاضي المحتسب

الأمـر بالمعروف ، والنهي عن المنكر من أجَلّ المبـادىء التي جاء بهـا الاسلام ، وأروعها ، لأن فيه صلاح الفرد وصلاح المجتمع •• وحين خبا ألق هـذا المبدأ وصل المجتمع المسلم الى حال يعرفها الجميع ••

تلك هي الحسبة في الشرع الإسلامي •• وهي في الأصل وظيفة كل مسلم على حسب حاله •• بيد أن تطور المجتمع المسلم وتعقـد أمور الدولة أدى الى ايجاد وظيفة المحتسب ، « وله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس مـن خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم » كما قال ابن تيمية في كتاب الحسبة ••

وحين ولي سحنون القضاء صـار ينظر في قضايا الحسبة ، وهو أول قاض فعل ذلك ••

وسنعرض لبعض ما قام به ••

● كان ينظر في أمور الأسواق ، وما يحدث فيها ، ويكافح الغش ويعاقب عليه ، ويخرج من السوق من يخل بالآداب ••

● وكان يحرض الناس على الأخلاق الفاضلة والأدب العالي ، ويحثهم على الخير والمعروف وينهاهم عن كل منكر ••

بل انه كان يراقب مظهرهم ، ويؤدب على سوء الحال في اللباس والهيئة ، حتى يكون المجتمع جميل المظهر والمخبر ••

● وكان يلاحق أولئك الذين يفسدون على الناس دينهم وأخلاقهم من دعاة البدع والضلالات والانحراف •

ـ ولذا رأيناه يحرم على الخوارج من إباضية وصفرية ، وعلى المعتزلة أيضاً ، عقد الحلقات في المساجد وفي الأندية العامة للمناقشة والمناظرة ، حرصاً منه على حماية عقيدة الشبيبة والعوام من الزيغ والانحراف ••

ومن كان من هؤلاء يعمل في الإمامة وفي الأذان وفي التعليم استتابه ، فان تاب بقي على رأس العمل ، وإلا كان جزاؤه الحرمان منه ••

كان يفعل ذلك لأن هذه المناظرات سموم سريعة الانتشار في الفكر المراهق ، والفكر العامي ••

ولا يعقل أن تترك دولة من الدول ، مهما بلغت فيها حرية الفكر ، دعاة الأهواء والضلال يرتعون في مجتمعها يبثون أفكارهم المخربة للشخصية القومية•• أليس في كل دولة نظام عام مقدس يحرم على أي كان الخروج عليه ••؟••

قال ابن الحارث : « سحنون أظهر السنة وأخمد البدعة •• » •

ونعم ما فعل ••

ـ وقد قيد امرأة كانت تتهم بسوء حتى قامت البينة على توبتها •

ـ كما ضرب اخرى بالسوط اتهمت بالجمع بين الرجال والنساء في بيتها . وأخرجها من الدار وبنى بابها ، وأسكنها بين قوم صالحين ••

● وكان يأمر بمعاقبة كل من يدعي الإفلاس ، أو يحتال به للتهرب من وفاء ما بذمته من ديون •• وكان يشتد في ضربه ، ويعاود ذلك مرات حتى يؤدي ماعليه•

وقد فعل ذلك في القاضي السابق ابن ابي الجواد حين قاضاه الناس بالحقوق التي لهم قبله ، فلم يؤدها ، واستمر في سجنه حتى مات ••

● وكان سحنون أول من جعل للمسجد إماماً راتباً يصلي في الناس ، وكان ذلك للأمراء .

● وكان سحنون أول من أحدث منصب صاحب المظالم ، في تونس وفوض إليه الحكم في الدعاوى البسيطة .. وقد ولى حبيب بن نصر بن سهل التميمي ، وأوصاه بقوله : اتق الله يا حبيب الذي اليه معادك ، ولا تؤثر على الحق أحداً .



مع السلطة

للسلطة بهرجة وفتنة وإغراء ..

فهي تغري من يجلس على أريكتها حتى لا يشتهي أن يفارقها ، ولن يفارقها إلا بشق الأنفس ..

وهي تغري الكثير من النـــاس ؛ فتحملهم على تلمس ذوي السلطة مسفوحين على الأبواب ..

وكلما زادت السلطة سعة وقوة زاد الاغراء شدة وفتنة .. وبزوالها يزول كل شيء ..

غير أن هنالك فئة ممن رحم ربك ، وهبهم سبحانه عقلاً واعياً ، وفكراً مجرباً، ونظراً ثاقباً ، وديناً قويماً . إن جلسوا على أريكة السلطة زانوهـــا من كمالهم كمالاً ، ومن جمال خلقهم جمالاً ، واتخذوها مطية للخير في الدنيـــا وللجنة في الآخرة .. وإن كانوا بين النـــاس ابتعدوا عن السلطة وسدنتهـــا فراراً بدينهم وكرامتهم ، حتى لا يحملهم الاغراء على النفاق ، وقول غير الحق والصدق ..

ولقد كان سحنون في حياته المديدة من هذه القلة المختـــارة ، من صفوة الصفوة ..

ونحن سنعيش مع سيرته قبل القضاء ، وبعد القضاء ، لنرى موقفه مـــن السلطان .

• • •

أ ـ قبل القضاء :

كان سحنون يكره الاتصال بذوي الجاه والنفوذ من الأمراء وغيرهم ، مع ان هؤلاء يحرصون الحرص كله على كسب مرضاته ، ويتوددون إليه •

ـ وكان يقول : « ما أقبح العالم أن يؤتى الى مجلسه ، فلا يوجد فيـه ، فيسأل عنه ، فيقال : هو عند الأمير ، هو عند الوزير ، هو عند القاضي ، فان هذا وشبهه لأشر من علماء بني اسرائيل •• » ••

وقد ذهب الى أبعد من ذلك ، فقال : « اذا تردد على القاضي ثلاث مـرات بلا حاجة ، فلا تجوز شهادته •• » ••

ان ذلك جرحة للعدالة •

ـ وقد انتقده أحد أصدقائه بقوله : يا أبا سعيد ـ كنية سحنون ـ كيف يسعك في دينك ان تدع الطلبة وحاجتهم اليك ، وتخرج الى البادية ، فتقيم بهـا الشهور الكثيرة ••

فقال سحنون : تريد مني ان ترى كتبي في هذا الغدير ••!•

وأشار الى ماء بين يديه ••

فقال صديقه : وكيف ذلك ؟•

قال : أحتاج الى ذراهم هؤلاء ـ يعني الأمراء ـ فآخذها ، فاذا أخذتهـا فارموا كتبي في هذا الغدير ••

إذاً هو يرفض هـدايا الملوك والأمراء ، ويفضل أن يذهب الى الباديـة للعمـل ••

وهو في موقفه هذا يمشي مع الورع الخالص •• وقد كان احمد بن حنبل رحمه الله يتورع عن هدايا الخلفاء ونحوهم ، لأن اموالهم تختلط بما يأخذونه من

الحرام من الظلم وغيره فيصير شبهة •• حتى بلغ به الحد ان قاطع اقرباءه ، ولم يأكل من بيوتهم شيئاً حين أخذوا هدايا الأمراء ، وأمرهم بالتصدق بها ليعود الى سابق وده لهم •

وقبل أحمد كان حذيفة وابو عبيدة ومعاذ وابو هريرة وابن عمر الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم يتنزهون عن أموال السلطان •• وقد سئل أحمد : مال السلطان حرام ؟• فقال : لا ، وأحب إليّ ان يتنزه عنه • وكيف أقول انه سحت ، وقد كان الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وكثير من الصحابة يقبلون جوائز معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه ••• [عن ابن قدامة في المغني] •

ونقول : بأن هؤلاء الصحابة الأجلاء لو عرفوا بأن في جوائز امير المؤمنين معاوية رضي الله عنه شيئاً من الحرام ، كالظلم في الجباية والمصدر ، لما قبلوها بالغة ما بلغت ، لأن ورعهم وكمال إيمانهم وعزة نفوسهم ، كل ذلك يأبى عليهم قبول درهم من مال فيه شبهة ••

ثم اين معاوية رضي الله عنه من الأمراء والملوك والسلاطين من بعده ••؟••

موقف سحنون املاه الورع والزهد ، حتى انه آثر شظف العيش وخشونة المأكل لكي يترفع عن حاجة الأمراء •• قال احد اصدقائه : « دخلت عليه يوماً وهو يأكل خبزاً يبله في الماء ويغطسه في الملح ، فقال : أما اني لم آكله زهادة في الدنيا ، ولكن لئلا أحتاج الى هؤلاء •• » ••

وقد بلغ به الأمر حداً عجباً •• فقد كان لا يشرب من منهل بناه أحد الأمراء ، واستمر على ذلك حتى لقي الله عز وجل ••

فتأمل هذا الورع والزهد ، لا أروع ولا أسمى ••

ـ وكان يضن بالعلم على الأمراء اذا علم منهم انهم يتخذونه رفاهية ، أو تبريراً لما هم فيه ••

فقد أرسل الأمير زيادة الله بن الأغلب يسأله في مسألة نزلت به ، فلم يجبه بشيء منها ، فعاتبه محمد بن عبدوس بذلك ، فقال سحنون : « أفتجيب انساناً يريد ان يتفكه ، ولو كان شيئاً يقصد به الدين لأجبته •• » •

تكريم للعلم ، وللدين أي تكريم •• ليت أهل العلم والدين يعرفون ذلك ، اذاً لكان الحال غير الحال ، والزمان غير الزمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ••

ــ وكان ، مع كل ما ذكرنا ، يزور الأمراء اذا وجد امراً يمليه الشرع ، والمصلحة ، ولا يخرج الا بنصيحة تقرع أذن الأمير ومن حوله ••

فقد رأى الناس يقبلون يد ابن الاغلب ، فنهاه عن ذلك ، وقال : لا تعطهم يدك ، لو كان هذا يقرب من الجنة لما سبقونا إليه •• » ••

ب ــ بعد القضاء :

اذا كانت الأسطر الآنفة قد ارشدتنا الى شخصية سحنون ، وموقفه من السلطان ، قبل ان يعرف الولاية ، فان الحياة العملية توجب التقاء السلطة بالقضاء ، وتؤدي الى الكشف عن معادن الرجال ••

ذلك لأن السلطة قد تجور وتطغى ، والأمير واعوانه قد يستعذبون استعباد الناس ، ويعشقون الاستبداد ، وعندها سيئن الحق والعدل ، وسيستغيث الناس ، ولا من يسمع الأنين والاستغاثة غير ضمير القاضي المؤمن الذي بيده وحده القوة العادلة ، التي تردع الظلم والظالمين مهما طغوا ، ومهما استبدوا ••

وقد كان سحنون ذلك القاضي المؤمن المؤتمن ••

● امتنع عن أجر القضاء ، وهو حق له ••

ــ وكان يقول : والله لقد بليت بهذا القضاء ، وبهم ــ اي بالأمراء ــ فوالله

ما أكلت لقمة ، ولا شربت لهم جرعة ، ولا لبست لهم ثوباً ، ولا ركبت لهم دابة ، ولا أخذت لهم صلة ..

ـ وقال سعيد بن اسحق : « كل من ولي قضاء إفريقية اكتسب الا سحنون .. » ..

ـ وقال احمد بن ابي سليمان : « كان العلماء يأكلون طعام علي بن حميد الوزير خلا سحنون وولده .. » ..

ويظهر ان عالمنا الكبير كان في مسلكه هذا صادقاً مع الله سبحانه لا غاية له الا التقوى والورع، ولذلك فقد حماه ربه جل جلاله بعد موته من عطايا الأمراء .. فحين توفي أرسل الأمير محمد بن الأغلب الكفن وما يلزم للتجهيز ، إلا أن محمد ابن سحنون احتال ، فكفن والده وجهزه من ماله ، وتصدق بما أرسله الأمير ..

● كان العقد بين سحنون والأمير محمد ان يذعن الثاني للحق هو ومن حوله من أهل وحاشية ، وعليه في ذلك عهد الله ..

ولكن هل يفي الأمير ، وهل يصدق ..؟..

ـ بدأ سحنون برد الحقوق التي اغتصبها رجال الأمير من سواد الشعب ، واكثر من ذلك ..

ـ وزاد استخفافاً بهم ، حتى انه كان يأبى ان يرسل احدهم وكيلاً عنه ، ويصر على ان يحضر بنفسه في مجلس القضاء ، ليشعر الناس ان للعدل معنى ، وللحق وجوداً ودولة ..

وكان هؤلاء يقفون في ساحة المحكمة مع أي فرد من الناس في مشهد لم يكونوا يعرفونه قبلاً ، ليعلموا ان ميدان العدل كميدان الحشر لا سيد فيه ولا مسود ، الكلمة الأولى للحق ، والقوي ضعيف حتى يؤخذ منه الحق ، والضعيف سلطان قوي حتى يعود الحق إليه ..

ـ كان لا يقبل شهادة أحد من حاشية الأمير ، ولا من أهله ..

فقد جاءته امرأة من القصر غاب زوجها ، فأرادت ان تدعي بفسخ النكاح لإخلاله بشرطها ، فقال لها سحنون : « اياك ان تشهدي أحداً من أهل القصر ، لا أقبل شهادتهم .. » ..

● ولكن أيرضي هؤلاء فعل سحنون ...؟..

انهم لا يجرؤون على ان ينبسوا ببنت شفة عند سحنون .. فأين يذهبون ..؟..

ليس لهم إلا الأمير ، إنهم دعامة حكمه ، وقواد جيشه ، وبدونهم لا يستطيع ان يحرك ساكناً ، فضلاً عن ان للسلطة منطقاً غير منطق القضاء ..

ـ سمع الأمير من أعوانه ، وأصغى ، واستجاب .. ولذلك فقد أرسل رسولاً الى سحنون يشرح له شكوى الأعوان من هذه المعاملة ، ويبلغه رغبة الأمير بأن لا يرى اي دعوى تتعلق بهؤلاء ، ويحذره من أذاهم لأنهم قد بيّتوا أمراً ...

فقال سحنون لرسول الأمير : « ليس هذا الذي بيني وبينه .. قل له : خذلتني خذلك الله .. » ..

كلمة حق هذا أوانها ، ومن يقولها غير سحنون ؟.. ومن يسمعها غير الأمير العاقل المنصف ..؟..

رد الأمير شكوى الحاشية وقال : ما نعمل له .. انما أراده الله ..

ـ استمر سحنون في منهجه الذي اختط ، وفي أسلوبه الذي سلك . واستمر الأعوان بالشكوى من قسوة القاضي ومن شدة معاملته ..

ويتأزم الموقف مرة أخرى ...

ـ كان سحنون جالساً امام داره إذ مر به حاتم الجزري ، وهو من اعوان

الأمير المقربين ، ومعه سبي من أحرار تونس •• وقد رأينا كيف ان الثـورات الداخلية لم تكن تخمد إلا لتثور من جديد ••

قال سحنون لأصحابه : « قوموا فأتوا بهم •• » فذهبوا وأتوا بالسبي ، وهرب حاتم ، ودخل على الأمير وقد مزق ثيابه ، وشكا إليه أمر سحنون •••

أرسل الأمير إلى سحنون : « اردد السبي لحاتم •• » فأبى سحنون ، ورد الرسول ، « وطلب منه ان يخبر أميره بأنهم احرار ولا سبي عليهم •• » •

وبعد قليل عاد رسول الأمير يخبر سحنون بإصرار القصر على اعادة السبي، فقال سحنون : قل للأمير : « جعل الله حاتماً شفيعك يوم القيامة •• » وأقسم على الرسول ليبلغن الأمير ذلك •

ثم ان سحنون أمر بسجن حاتم ، فسيق إلى السجن •• وأسرّها الأمير في نفسـه ••

ـ وتتكرر نفس القصة مع قائد من قواد الأمير واسمه منصور ، وقد عـاد ومعه نساء سبايا حرائر من أهل تونس ••

ركب سحنون وأخذ الحرائر من منصور ••

فذهب منصور الى الأمير يشكو قاضيه ، فأرسل الأمير يطلب من سحنون اعادة السبي ، فرفض • وعـاد الرسول بالأمر والتأكيد ، فكان الجواب الرفض والإصرار ••

عندها طلب الأمير من رسوله رأس سحنون ، أو النسوة ••

هنا نزوة السلطة وحمقها ، وهنا تسبر أغوار الرجال ••

تقدم الرسول من سحنون ، وهو يبكي ، وأبلغه غضب الأمير ، وانه لا بـد من تنفيذ الأمر •• وإلا ••••

تناول سحنون ورقة ، وكتب عليهـا « وياقوم مالي أدعوكم إلى النجـاة وتدعونني الى النار •• » ••

فرضخ الأمير ، وتذكر عهده لسحنون •••

ـ وتشتد الضجة حـول سحنون •• ولم لا تشتد ••؟• ومـن استمرأ السيادة بالباطل وبالظلم ، فأنّى له أن يذل للحق والعدل ••

وقد صدف ان عاد قائد من اكبر قواد ابن الاغلب ، وهو زوكاي بن زريح ، من أطراف تونس ، ومعه نساء عربيات قرشيات سباهن في احدى المعارك ، ولـم يتمكن هذا القائد من النصر إلا بعد لأي وعناء ••• أدخل هذا القائد السبايا الى قصره ، وأغلق عليه بابه ، كأنه عاد برقيق اشتراه من مال أبيه وجده ••

علم سحنون بذلك ، فهل يسكت ••؟•• كيف السبيل ••؟•• أيلجأ الى الأمير ••؟•• وربما كان في نفسه العطف على قائـده ، ولا سيما ان ثورة تلك القبائل يمكن ان تهدأ بسبي النساء ••

أرسل سحنون في المدائن والقرى يدعو فرسانها وشجعانها اليه ، فأتوه ، ولم يعرفوا ما يريد •• وقد اجتمع حوله ألف فارس وقفوا رهن إشارته ••

قال لهم : « تخيَّروا منكم مئة رجل لأمر يؤجرني الله عليه •• » ••

وبعد صلاة العشاء أمر هؤلاء بالتوجه الى قصر القائـد ومحاصرته ، وان يتقدم بعضهم ويطرق الباب ، فاذا خرج ألقى القبض عليه حتى لا تحدث مقاومـة بين هؤلاء ومن في القصر من جند وخـدم ، ثم يدخل بضعة أشخاص الى القصر ويتم اخراج النسوة ، وتسليمهم الى سحنون ••

وهـكذا كان ••

فوجيء القائد زوكاي ، وقد رأى ما رأى ، فلبس ثيابه ، واتجه الى الأمير ،

فأيقظه ، وروى له القصة وهو يبـكي •• وطلب منه ان يكف بأس قاضيه عـن السلطة ومن يلوذ بها ••

أرسل الأمير يطلب رد السبي ، فكان جواب سحنون للرسول : « قل للأمير: والله الذي لا اله إلا هو لن أخرجهن من داري حتى تعزلني عن القضاء ، ويعلم الله انه لا نظر لي على رجلين من المسلمين •• » وأرسل سحنون ابنه محمداً ومعه قرار الأمير بولاية القضاء ، وأمره أن يقول له : « هــذا سجلك ، وجعل الله زوكاي شفيعك يوم القيامة •• » •

اقشعر جلد الأمير حين سمع ذلك ، وقال لمحمد : اقرأ على أبيك السـلام وقل : « جزاك الله عن نفسك وعن المسلمين خيراً • فقد أحسنت أولاً وآخراً • ونحن نرضي قائدنا من أموالنا ، وامض على حسن نظرك •• » •

كان الناس حول سحنون ينظرون بم يرجع محمد •• وكلهم لهفة وترقب وحذر •• أيعزل هذا القاضي الذي ما عرفنا العدل إلا في حكمه ، ولا ذقنا حلاوة الإنصاف الا في مجلسه ••؟••

حين سمع سحنون ومن حوله جواب الأمير تلقى سحنون شكر الناس على وقفة الحق ، فقال لهم : ان الله أحب الشكر من عباده ، فتقدموا الى باب الأمير ، واشكروه على تأييده الحق ، ففي ذلك صلاح الخاصة والعامة ••• ففعلوا كما أمرهم قاضيهم الجليل ••

ليس في فعل سحنون عجب ، لأنه القاضي الذي وصفنا ، وانما العجب من الناس ومن الأمير ••

العجب من الناس لسرعتهم في تلبية نداء القاضي ، وندبهم الفرسان والابطال دون ان يسألوا عن السبب ، وتنفيذهم ما أمرهم به دون أي تردد ••

هكذا فليكن الرأي العام ••

والعجب من الأمير كيف كان يذعن للحق كلمـــا تسربت فتنة السلطة الى نفسه •• أذعن للحق لأنه صاحب نفس إذا ذُكِّرت ذكرت ، فإذا هي على درب الهدى والفلاح ••

والعجب منه أيضاً كيف كان شديد الاحترام للقضاء •• وقد ساعده على ذلك طهارة سحنون •• وكثيراً ما كان الأمير يرد شكوى الأعوان من القــاضي بقوله : « إنه لم يركب لنا دابة ، ولا ثقل كمه بصرة ، فهو لا يخافنا •• » ••

هذا والله هو الحق ، اذ كيف يخضع الأمير لكلمة حق خرجت من فم مملوء بذهبه •• هذا اذا استطاع الفم ان ينطق ••

وهيهات ••

• • •

ونطوي صفحة من سيرة سحنون في القضاء ، وفي أذن التاريخ ترن كلمــة عيسى بن مسكين : حصل الناس بولايته على شريعة الحق ، ولم يلِ قضاء إفريقية مثله •••

مِنْ مَالِكٍ إِلَى سُحْنُونْ



السجل الخلقي لسحنون ، والذي تصفحته آنفاً ، ألا تجد به ريح مالك ، خلق مالك ، شخصية مالك ..؟..

والحق ان شخصية مالك الفذة بكل جوانبها تركت أثراً في المغرب العربي ما نزال نرى أخاديده بارزة في نفسية أهلنا هناك لم يبلها كرّ السنين ..

وربما كان هـذا بسبب التعلق الشـديد ، والولع العجيب بسيرة مالك ، والعناية بها في مرحلة الطفولة واليفاعة والشباب .. فمالك هنـاك مثل أعلى ، وقدوة مثلى يقترب منها من ينشد الكمال والفضل ..

والذي نجده لمالك في المغرب هو نسيج وحده . فمـا أعرف صحابياً ، أو اماماً ، أو أي عالم من علماء المسلمين ترك في سلوك أتباعه أثراً خالداً ما تركه مالك في نفوس أهل المغرب ..

بل لقد ذهب استاذنا الكبير العلامة السيد محمد المنتصر الكتاني إلى أن « ما اشتهرت به الشخصية المغربية في ماضيها وحاضرها من عنف وحدة في نفسها، وصلابة في تمسكها بالإسلام دولة وديناً ، وبالعروبة لغـة ونسباً إن هو الا أثر لمذهب مالك الذي عايش الحيـاة المغربية اسرة ومجتمعاً ، شعوباً وحكومات ، وتغلغل فيها حتى الأعماق .. » .

وقال أيضاً : فما سيعرض لك من حيـاة مالك من ملامح قويـة وعنف في الرأي ، وصلابة في الحق ، واعتزاز بالعروبة الأصيلة لغـة ونسباً ، وتصلب في التمسك بنصوص الاسلام قرآناً وحديثاً ، وصرامة في الفتوى والحكم ، وثورة فدائية على الظلم والظالمين ، وثقة شاملة بالنفس في عزة وروح تواقة للقيادة وتربية الشعوب والتطلع لمعالي الأمور ، والتعالي على سفسافها ، والترفع على الملـوك والمترفين ، والتذلل للمستضعفين من الرجال والنسـاء والولدان ، ومشاركتهم

مجتمعهم أفراحاً وأتراحاً وخدمة لهم حتى ينالوا حقوقهم وينتصفوا من الغاصبين والجائرين ..

فمـا ستعرض لنا في حياة مالك من هذه الخلال والملامح كانت للمغرب على مختلف شعوبه في الزمن الغابر وفي العصر الحاضر موضع الأسوة والقدوة مـع تتابع القرون ، وتسلسل الأجيال ، درسوها في مدارسهم صغاراً ، وكانت المثل الأعلى لهم كباراً ... » ..

...

ولئن كان هذا أثر مالك في محيط المغرب ، فان أثره في شخصية سحنون سيكون أشد وأقوى ، وهو الذي حفظ فقه مالك ، ونشره في مدونته الرائعة ، وأخذ علمه عن الطبقة الأولى من أصحابه ..

ولذلك كان التقى ، والورع ، والصلاح ، والعلم والتفرد به بين الأقران ، والأناة قبل الفتوى ، والانفاق على طلبة العلم ، ومكارم الخلق ، والجهر بالحق والصلابة في الدين ، والتودد للناس والأنس بهم والتأدب معهم ، كلها صفات في مالك كما هي في سحنون .

حتى النظرة الواقعية التي تبني الحياة كانت واحدة عندهما ... فقد رأينا كيف قبل سحنون القضاء ، وكيف تعرض لنقد مرير من زاهد عصره عبد الرحيم ابن عبد ربه .

وها هو مالك يتعرض لنفس الموقف .. فلننظر كيف فعل ..

فقد كتب اليه عبد الله العمري العابد الزاهد يدعوه إلى اعتزال النـاس وترك الاجتماع بهم ، والانقطاع الى الزهد والعبادة ..

فكان الجواب من مالك :

إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق . رجل فتح الله له في الصلاة ، ولم

يفتح له في الصوم • ورجل فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصلاة • ونشر العلم وتعلمه من أفضل أعمال البر • وقد رضيت بما فتح الله لي من ذلك • وماأظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه • وأرجو ان يكون كلنا على خير •

ويجب على كل واحد منا ان يرضى بما قسم الله له •

والسلام •• » •

تأمل موقف مالك من مجابهة الحياة ، وخوض غمارها ، تجده بارزاً في موقف سحنون ••

ونعم الموقف •••

• • •

إلا أننا سنجد في مالك مالا نجد في سحنون •••

● فقد كان مالك يعيش حياة فيها كل مظاهر النعيم •

وكان يقول : « ما أحب لأحد أنعم الله عليه الا أن يرى أثر نعمته عليه وخصوصاً أهل العلم •• » •

ولذلك رأيناه يلبس فاخر الثياب ، ويتطيب بالمسك ونحوه ، ويقول : « إنا كنا نتواضع في التقى والدين لا في اللباس ، وما أدركت فقهاء بلدنا ــ المدينة المنورة ــ إلا وهم يلبسون الثياب الحسان •• » ••

أما سحنون فكانت حياته بسيطة للغاية ، وصفناها لك ، على ما كان عليه من ثراء ••

● كان مالك يجالس الخلفاء والملوك ، ويغشى مجالسهم ويعلمهم ، ويقبل منهم الهدايا والصلات على حرج ، يتألف بها قلوبهم ••

وقد سئل مرة عن الأخذ من السلاطين فقال : « أما الخلفاء فلا شك (يعني لا بأس به) ، واما من دونهم فإن فيه شيئاً •• » ••

وعندي ان التسوية في الحكم بين الخليفــة وغيره من الأمراء والوزراء سواء •• قبول أو رفض ••

ومرة سأله سائلان عن قبول هدايا الولاة فقال لهما : « لا تأخذاها •• » قالا : « أنت تقبلها •• »

فقال للأول : « أتريد ان تبوء بإثمي وإثمك •• »

وقال للثاني : « أحببت أن تبكتني بذنوبي •• »

الا أن مالكاً اذا رأى ان وراء الهدية مساومة في أمر ديني رد الهدية على صاحبها ••

أما سحنون فالأمر عنده على النقيض من ذلك • فقد عرفنا شدته وموقفه الصلب من الأمراء •• حتى انه تورع عن الشرب من منهل بناه أحدهم ، كما تورع عن أخذ أجرة على القضاء ، وهي له حق ••

• • •

موقف لكل منهما متميز ، لم نستطع ان نجد له تعليلاً ظاهراً سوى المزاج النفسي والطبيعة البشرية ••

النهــاية

في شهر رجب سنة اربعين ومئتين للهجرة (٨٥٤ م) اختار الله سبحانه سحنون الى جواره ، بعد ثمانين سنة ، مرت بالعبادة والعلم والعدل والحق ..

مات سحنون .. فبكته الأمة ، حتى مشايخ الأندلس ، وقد قصدوه من بلادهم لتلقي العلم عنه .. كانوا يضربون خدودهم كالنساء ، ويقولون : « يا أبا سعيد ليتنا تزودنا منك بنظرة نرجع بها إلى بلدنا .. »

مات سحنون .. فرُجّت لموته القيروان ، حتى خرج كل من فيها لتشييع جنازته يتقدمهم الأمير محمد بن الأغلب ومعه حاشيته وفيهم أهل الاعتزال ..

دفن في القيروان ، وقبره مشهور ..

• • •

لقد مات سحنون الإنسان الذي اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره .. الفقه الواسع ، والورع الصادق ، والصراحة في الحق ، والزهادة في الدنيا ، والتخشن في الملبس والمطعم ، والسماحة ، ولا يقبل من أحد شيئاً ، ولا يهاب سلطاناً في حق يقوله ، وسلامة الصدر ، مع شدة على أهل البدع والضلال ..

انتشرت إمامته بالمشرق والمغرب ، وكانت أيامه عامرة بالنور والعلم والحق..

انه من مفاخر هذه الأمة ..

يرحمه الرحمن تبارك وتعالى

هو وسائر علماء المسلمين .

الأعـــلام

ابراهيم بن الأغلب :

هو ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي ، مؤسس دولة الأغالبة • ولد سنة ١٤٠ هـ • كان شاعراً ، خطيباً ، شجاعاً ، حافظاً لكتاب الله تعالى ، وعلى علم بالأدب والفقـــه •

قال عنه استاذه الليث بن سعد : « ليكون لهذا الفتى شأن » •

وقال عنه ابن عذارى : « لم يل إفريقية أحسن سيرة ، ولا أحسن سياسة ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه » • توفي سنة ١٩٦ هـ •

ابراهيم بن شعيب :

من تلاميذ عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس الشهير •

احمد بن حنبل :

الامام الجليل ابو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي ، إمام المذهب والسنة ، ولد ببغـداد سنة ١٦٤ هـ ورحل في سبيل العلم الى الكوفـة والبصرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن والشام والمغرب والجزائر وفارس وخراســان •

من أبرز آثاره : المسند ، والتاريخ ، والناسخ والمنسوخ ، والتفسـير ، وفضائل الصحابة ••

ابو اسحق البرقي :

ابراهيم بن عبد الرحمن بن عمرو ، من فقهاء مصر ، توفي سنة ٢٤٥ هـ •

أسد بن الفرات :

أسد بن الفرات بن سنان ، مولى بني سليم ، قاضي القيروان وفقيهها ، وأحد القادة الأبطال ، فاتح صقلية سنة ٢١٢ هـ •• كان شجاعاً ، حازماً ، صاحب رأي • ولد سنة ١٤٢ هـ وتوفي سنة ٢١٣ هـ •

أشهب القيسي :

هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري الجعدي ، فقيه الديار المصرية الكبير •• ولد سنة ١٤٥ هـ ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ •

الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب :

ابو عقال ، ولد سنة ١٧٣ هـ ، وتولى الامارة سنة ٢٢٣ هـ وكان حسن السيرة • توفي سنة ٢٢٦ هـ •

إقليدس :

عالم رياضي يوناني ، نشأ في الاسكندرية في عهد بطليموس الأول عام ٣٢٣ ٢٨٥ ق م • قام بتنظيم وتنسيق علم الرياضيات • من أبرز مؤلفاته : الأصول ، الظاهرة ، والبصريات •

أبو بكر الصديق :

عبد الله بن ابي قحافة ، خليفة رسول الله ﷺ ، ولد بعد حادثة الفيل بسنتين وستة أشهر • وهو أول من آمن بالرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ورافقه في الهجرة وفي المشاهد كلها • كان أنسب العرب وأعلمهم ، وكان تاجراً • وقد انفق امواله كلها في سبيل الله •

توفي في جمادى الأولى سنة ١٣ هـ وله من العمر ثلاث وستون سنة •

البهلول بن راشد :

هو ابو عمرو الحجري الرعيني • ولد عام ١٢٨ هـ • كان من العلماء الزهاد

من أهل القيروان • ثقة ، مجتهد ، ورع ، سمع من مالك والثوري وعبد الرحمن ابن زياد ، وسمع منه سحنون وغيره • توفي سنة ١٨٣ هـ • له كتاب في الفقه على مذهب مالك •

ابن جبلة :

هو عبد الله بن جبلة بن حيان بن ابهر الكناني • فقيه إمامي من أهل الكوفة• من كتبه : الرجال ، الصفة في الغيبة ، الفطرة •• توفي سنة ٢١٩ هـ •

ابن الحارث :

هو مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني ، فاتح قرطبة سنة ٩٢ هـ • وقد وجهه عبد الملك بن مروان الى الاندلس غازياً مع طارق بن زياد• توفي عام ١٠٠ هـ تقريباً •

الحارث بن مسكين :

هو الحارث بن مسكين بن محمد الأموي ، مولاهم ، ولي قضاء مصر سنة ٢٣٧ هـ • كان فقيهاً مالكياً ، ثقة في الحديث • سجن في محنة خلق القرآن وعذب • وكان كثير الابتعاد عن الملوك والأمراء • ترك القضاء سنة ٢٤٥ هـ •

حذيفة :

هو الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان العبسي رضي الله عنه • روى عن رسول الله ﷺ الكثير من أقواله ، كما روى عن عمر ، وروى عنه جابر رضي الله عنه ، وكثير من التابعين •

ولاه عمر رضي الله عنه على المدائن ، فلم يزل بها حتى مات سنة ٣٦ هـ •

ابن أبي حسان :

هو عبد الله بن أبي حسان اليحصبي ، كان من أشراف إفريقية ، رحل الى مالك ، فوجد عنده كل تكريم • حتى قال ابن وهب : ما رأيت مالكاً أميل الى أحد منه لابن أبي حسان •

كان غاية في الفقه بمذهب مالك ، حسن البيان ، عالماً بأيام العرب وبالأنساب، توفي سنة ٢٢٧ هـ ، وهو ابن سبع وثمانين سنة .

الحسن بن علي :

سبط رسول الله ﷺ ، وسيد شباب أهل الجنة ، أصلح الله سبحانه به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، فقد بايع سنة ٤٠ هـ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بالخلافة . ولد رضي الله عنه سنة ٣ هـ ، وتوفي سنة ٤٩ هـ ، ودفن في البقيع .

الحسين بن علي :

سبط رسول الله ﷺ ، وسيد شباب أهل الجنة ، الشهيد ابن الشهيد .. ولد في شعبان سنة ٤ هـ ، واستشهد في كربلاء سنة ٦١ هـ .

حفص بن غياث :

هو حفص بن غياث النخعي الأزدي . ولد سنة ١١٧ هـ ، كان من الفقهاء ، وحفاظ الحديث الثقات ، وهو صاحب ابي حنيفة ، ويذكره الإمامية في رجالهم . ولي قضاء بغداد ، ثم الكوفة ، ومات فيها سنة ١٩٤ هـ .

حمديس القطان :

احمد بن محمد الأشعري ، من أصحاب سحنون . كان يضرب به المثل في العبادة والدين، اخذ عن فقهاء مصر والمدينة . ولد سنة ٢٣٠هـ وتوفي سنة ٢٨٩هـ .

أبو حنيفة :

هو النعمان بن ثابت ، الفقيه المجتهد ، احد الأئمة الأربعة . ولد ونشأ في الكوفة . كان قوي الحجة والمنطق ، جواداً ، كريم الأخلاق . ولد عام ٨٠ هـ وتوفي ببغداد سنة ١٥٠ هـ .

أبو خارجة :

هو عنبسة بن خارجة الغافقي . العالم ، الفقيه ، الصالح ، كان متفنناً بالعربية

وغيرها . سمع من مالك ، والثوري ، والليث ، وابن عيينة ، توفي سنة ٢١٠ هـ وسنه ست وثمانون سنة .

خديجة بنت سحنون :

من ربات العقل ، والرأي ، والعلم ، والفضل ، والصلاح . كان ابوها يستشيرها في مهمات أموره ، حتى انه لما عرض عليه القضاء لم يقبله الا بعد أخذ رأيها . أخذت العلم عن ابيها ، وكانت مرجع فتوى نساء عصرها . توفيت حوالي سنة ٢٧٠ هـ ، ودفنت بمقبرة اسرتها خارج القيروان .

أبو داود الطيالسي :

هو سليمان بن داود بن الجارود ، مولى قريش . فارسي الأصل . كان من حفاظ الحديث . وله مسند الطيالسي . ولد سنة ١٣٣ هـ وسكن البصرة وبها مات سنة ٢٠٤ هـ .

ابن رشد :

هو محمد بن احمد بن رشد ، ابو الوليد . من أعيان المالكية ، قاضي الجماعة بقرطبة . ولد سنة ٤٥٠ هـ بقرطبة ، وتوفي بها سنة ٥٢٠ هـ .

ابو زياد الرعيني :

هو حزم بن غالب الرعيني الطليطلي . كان صاحب رواية وفتيا ، رحل الى الشرق ، وأخذ عن سحنون وغيره .

زيادة الله بن الأغلب :

هو زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب ، ولد سنة ١٧٢ هـ . وكان فصيحاً أديباً ، توفي سنة ٢٠١ هـ .

سفيان بن عيينة :

هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي . ولد بالكوفة سنة ١٠٧ هـ .

كان حافظاً ، ثقة ، واسع العلم ، كبير القدر ، سكن مكة المكرمة ، وتوفي فيها سنة ١٩٨ هـ .

قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز .

له « الجامع في الحديث » وكتاب في التفسير .

سليمان بن سالم :

القاضي من أصحاب سحنون ، ولي القضاء بصقلية ، وبها مات ، وعنه انتشر الفقه في تلك الجزيرة .

سيبويه :

هو : عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، امام النحاة ، وأول من بسط علم النحو . ولد في احدى قرى شيراز سنة ١٤٨ هـ . وقدم البصرة ، فلزم الخليل بن احمد . رحل الى بغداد . ثم عاد الى الأهواز فتوفي بها سنة ١٨٠ هـ .

أبو الطاهر :

هو : أحمد بن عمرو بن عبد الله بن السرح . ولد سنة ١٩٠ هـ . كان فقيهاً، محدثاً . روى عن ابن عيينة ، وبشر بن الحكم ، وسالم بن ميمون ، وابن وهب . وروى عنه ابو زرعة ، وابو داود السجستاني ، وابو حاتم ، ومسلم وخرج له في صحيحه . وهو ثقة صدوق . توفي سنة ٢٥٠ هـ .

عبد الجبار السرتي :

هو : عبد الجبار بن خالد السرتي ، ابو حفص . ولد سنة ١٩٤ هـ . كان من أكابر أصحاب سحنون . وكان شيخاً صالحاً ، ثقة ، زاهداً ، كثير الذكر والتلاوة . يضرب أهل إفريقية به المثل في الفضل والدين . توفي سنة ٢٨١ هـ .

عبد الرحمن بن القاسم :

هو : عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقي المصري . أصله من فلسطين .

ويعرف بابن القاسم • ولد بمصر سنة ١٣٢ هـ • كان فقيهاً جمع بين الزهد والعلم • روى عن الليث ، وابن الماجشون ، ومسلم بن خالد الزنجي وغيرهم • وروى عنه سحنون وعيسى بن دينار والحارث بن مسكين وغيرهم • وخرج عنه البخاري • توفي بمصر سنة ١٩١ هـ •

عبد الرحمن بن مهدي :

هو : عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي ، من كبار حفاظ الحديث • قال عنه الشافعي : لا اعرف له نظيراً في الدنيا • له في الحديث تصانيف ••

ولد بالبصرة سنة ١٣٥ ، وتوفي بها سنة ١٩٨ هـ •

عبد الرحيم بن عبد ربه :

هو : عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي ، المعروف بالزهد والعبادة • سمع من سحنون واسد بن الفرات • توفي سنة ٢٤٦ هـ •

عبد الله بن عبد الحكم :

هو : عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث مولى عميرة (وهي امرأة من موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه) ، ولد بمصر سنة ١٥٥ هـ • سمع مالكاً والليث وعبد الرزاق وابن عيينة وغيرهم •• وروى عنه ابن نمير ، وهارون بن اسحق ، والقراطيسي ، واحمد بن صالح وغيرهم ••

كان رجلاً صالحاً ، ثقة ، محققاً بمذهب مالك ، فقيهاً ، وكان قاضي مصر ، وصديقاً للشافعي •• من تآليفه : المختصر الكبير ، والمختصر الأوسط ، والمختصر الأصغر ، وفضائل عمر بن عبد العزيز •• توفي ببغداد سنة ٢١٤ هـ •

عبد الله بن عمر بن الخطاب :

هو : عبد الله بن عمر الصحابي الجليل رضي الله عنهما • ولد سنة ٣ مـن

البعثة . اسلم مع ابيه . كان من أئمة الدين .. توفي سنة ٧٣ هـ .

عبد الله بن نافع الصائغ :

هو : عبد الله بن نافع بن مخزوم المعروف بالصائغ . صحب مالكاً مدة طويلة ، وهو من كبار اصحابه . كان صالحاً ، وقد توفي بالمدينة سنة ١٨٦ هـ .

عبد الملك بن حبيب الأندلسي :

هو : عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون القرطبي . ولد في إلبيرة سنة ١٧٤ هـ . كان عالم الاندلس وفقيهها ، عالماً بالتاريخ والأدب ، رأساً بالفقه المالكي . له تصانيف كثيرة منها : حروب الاسلام ، طبقات الفقهاء والتابعين ، طبقات المحدثين . وغيرها ..

توفي بقرطبة سنة ٢٣٨ هـ .

عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجئون :

هو : عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمي بالولاء . كان فقيهاً مالكياً، فصيحاً ، توفي سنة ٢١٢ هـ .

ابن عبدوس :

هو : محمد بن ابراهيم بن عبد الله . الفقيه الزاهد . كان من كبار العلماء . له مجموعة في الفقه والحديث.. ولد في القيروان سنة ٢٠٢هـ، وتوفي عام ٢٦٠هـ.

ابو عبيدة ابن الجراح :

هو : عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي . الصحابي الجليل رضي الله عنه ، احد العشرة المبشرين بالجنة ، أمين الأمة .. ولد عام ٤٠ قبل الهجرة . فتح الشام . توفي في غور بيسان في فلسطين سنة ١٨ هـ .

علي بن زياد :

هو : علي بن زياد التونسي العبسي . بارع في الفقه ، كثير العبادة روى عن مالك الموطأ ، وهو شيخ سحنون .

عمر بن الخطاب :

هو : عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العـدوي رضي الله عنـه .. أمير المؤمنين ، احد العشرة المبشرين بالجنة ، الشجاع الحازع ، صاحب الفتوحـات الرائعة .. اسلم قبل الهجرة بخمس سنين .. ولد عـام ٤٠ قبل الهجرة ، وقـد قتله ابو لؤلؤة المجوسي سنة ٢٣ هـ .

عيـاض :

هو : القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي . عالم المغرب ، وامام الحديث . كان من أعلم الناس بكلام العرب وتاريخهم ، ولي قضاء سبتة . وولد فيها سنة ٤٧٦ ، ثم ولي قضاء غرناطة . توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ .

عيسي بن مسكين :

هو : عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج بن محمد الإفريقي . ولد سنة ١١٤ هـ . سمع من سحنون . وكان من أهل الفقه والورع والهيبة . متفنناً في كل العلوم فصيحاً . ولي القضاء ولم يأخذ في مدته على القضاء أجراً . ولد سـنة ٢٢٤ هـ ومات سنة ٢٧٥ هـ .

ابن غافق :

هو : عبـد الله بن غافق التونسي ، الورع العالم الفقيه وعليـه الاعتماد في الفتوى . ولد سنة ٢٠٤ هـ ، وتوفي بتونس سنة ٢٧٥ هـ .

ابن غانم :

هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحيل الرعيني ، ولد سنة ١٢٨ هـ . كان قاضياً ، فقيهاً ، ورعاً ، ولاه الرشيد قضاء إفريقية ، سمع من مالك ، وجمع كـل ما سمعه منه في كتاب : ديوان ابن غانم .

توفي سنة ١٩٠ هـ .

فاطمة الزهراء

بنت رسول الله ﷺ ، سيدة نساء الجنة ، أمها ام المؤمنين خديجة رضي الله عنهما ، وهي زوج علي بن ابي طالب رضي الله عنه • توفيت سنة ١١ هـ •

ابن قدامة :

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، فقيه من أكابر الحنابلة ، ولد بقرية جماعيل من قرى نابلس بفلسطين سنة ٥٤١ هـ • وتوفي بدمشق سنة ٦٢٠ • له تصانيف كثيرة منها : المغني ، والمُقْنع ، والكافي ••

مالك بن أنس :

هو الامام مالك بن أنس الأصبحي الحميري • إمام دار الهجرة ، أحد الأئمة الأربعة ••

ولد سنة ٩٣ هـ ، وتوفي سنة ١٧٩ هـ •

المأمون :

هو عبد الله بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء من بني العباس • ولد سنة ١٧٠ هـ ، وبويع بالخلافة سنة ١٩٨ هـ • وتوفي سنة ٢١٨ هـ •

محمد بن ابراهيم بن زياد :

هو : محمد بن ابراهيم بن زياد الاسكندري المعروف بالمواز • فقيه مالكي تلقى العلم عن ابن الماجشون وغيره من تلاميذ مالك ، انتهت اليه رياسة المذهب في عصره •• توفي سنة ٢٨١ هـ •

محمد بن احمد بن عبد العزيز العتبي :

هو : محمد بن احمد بن عبد العزيز العتبي الأموي ، الاندلسي •• سمع من سحنون وغيره •• اصبح فقيه المالكية • توفي بالأندلس سنة ٢٥٥ هـ •

محمد بن الاغلب :

هو : محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب ، سادس ملوك الأغالبة ، ولد سنة ٢٠٦ هـ ، وتوفي سنة ٢٤٢ هـ .

محمد بن الحسن الشيباني :

هو : محمد بن الحسن الشيباني ، امام الفقه والاصول ، صاحب ابي حنيفة. اصله من قرية حرستا قرب دمشق . ولد بواسط سنة ١٣١ هـ . ولاه الرشيد قضاء الرقة . مات بالري سنة ١٨٩ هـ .

محمد بن سحنون :

هو محمد بن عبد السلام (سحنون) التنوخي . الفقيه المالكي ، ولد سنة ٢٠٢ هـ بالقيروان . ولم يكن في عصره أجمع لفنون العلم منه . توفي سنة ٢٥٦هـ.

معاذ بن جبل :

هو : معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاري الخزرجي ، الصحابي الجليل رضي الله عنه . احد الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ . ارسله رسول الله عليه الصلاة والسلام قاضياً الى اليمن ومرشداً لأهلها .. ولد سنة ٢٠ قبل الهجرة وتوفي سنة ١٨ هـ .

معاوية بن ابي سفيان :

هو : معاوية بن ابي سفيان صخر بن حرب بن أمية .. مؤسس الدولة الأموية ، كاتب رسول الله ﷺ .. ولد بمكة سنة ٢٠ قبل الهجرة ، واسلم يوم الفتح ، سلم الحسن بن علي رضي الله عنهما له الخلافة . توفي بدمشق سنة ٦٠هـ.

معاوية الصمادحي :

هو : معاوية بن احمد بن عون .. كان رشيداً صالحاً . توفي سنة ١٩٩ هـ .

موسى الصمادحي :

هو : أبو جعفر موسى بن معاوية الصمادحي ، مولى آل جعفر بن ابي‌طالب• كان فقيهاً ، محدثاً ، سمع منه سحنون وغيره •

توفي سنة ٢٢٥ هـ وعمره خمس وستون سنة •

واصل الحمي :

هو : واصل بن عبد الله الحمي ابو السري العالم العابد الزاهد ، طلب العلم على سحنون ، وتوفي سنة ٢٥٢ هـ •

وكيع بن الجراح :

هو : وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي • امام الحديث الكبير •• الورع العابد امام المسلمين •• ولد بالكوفة سنة ١٢٩ هـ وتوفي سنة ١٩٧ هـ •

ابن وهب :

هو : عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري المصري • فقيه ، إمام • من أصحاب مالك ، جمع بين الفقه والحديث والعبادة ، كان حافظاً ، مجتهداً ، ثقة • ولد سنة ١٢٥ هـ بمصر ، وفيها توفي سنة ١٩٧ هـ •

ابو هريرة :

هو : عبد الرحمن بن صخر الروسي ، الصحابي الجليل رضي الله عنه ، اكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له •• ولد سنة ٢١ قبل الهجرة وأسلم سنة ٧ هـ ، ونوفي سنة ٥٩ هـ بالمدينة المنورة •

يحيى بن عمر :

هو : يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني الاندلسي ، فقيه مالكي عالم بالحديث • نشأ بقرطبة ، وقد ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفي سنة ٢٨٩ هـ • له مصنفات في نحو أربعين جزءاً •

يزيد بن هارون :

هو : يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت السلمي بالولاء .. من حفاظ الحديث الثقات ، ولد سنة ١١٨ هـ وتوفي سنة ٢١٨ هـ .

ابو يوسف :

هو : القاضي يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الانصاري الكوفي البغدادي ، صاحب ابي حنيفة ، الفقيه الأصولي المجتهد المحدث الحافظ المفسر .. ولد بالكوفة سنة ١١٣ هـ ، نفقة على ابي حنيفة ، وسمع من عطاء وطبقته ، روى عنه محمد بن الحسن واحمد بن حنبل ويحيى بن معين . ولي القضاء ببغداد ايام المهدي والهادي وهارون الرشيد . وتوفي ببغداد سنة ١٨٢ هـ . من آثاره : كتاب الخراج ، والمبسوط في الفقه ، وادب القاضي .

المصادر

١ ـ الأعلام : الزركلي ، خير الدين .

٢ ـ الامام مالك : الكتاني ، محمد المنتصر .

٣ ـ البداية والنهاية : ابن كثير ، اسماعيل

٤ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ابن عذاري المراكشي
تحقيق : ج . س . كولان و إ . ليفي بروفنسال

٥ ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي
العصر العباسي : الدكتور حسن ابراهيم حسن

٦ ـ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية : الدكتور احمد شلبي .

٧ ـ تاريخ الأمم والملوك : الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير

٨ ـ تاريخ قضاة الاندلس ، المسمى :
كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا :
المالقي ، ابو الحسن ابن عبد الله النباهي الأندلسي .
نشر : ا . ليفي بروفنسال

٩ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك :
السبتي ، القاضي عياض
تحقيق : الدكتور أحمد بكير محمود

١٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية : الترجمة العربية

١١ ـ دائرة المعارف : البستاني ، بطرس

١٢ ـ دائرة معارف القرن العشرين : وجدي ، محمد فريد

١٣ ـ الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب (المالكي) :
اليعمري ، ابو الوفاء ابراهيم بن علي المعروف بابن فرحون
١٤ ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم :
المالكي ، أبو بكر ابن أبي عبد الله
تحقيق : الدكتور حسين مؤنس .
١٥ ـ سير النبلاء : الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد
١٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : الحنبلي، ابن العماد أبو الفرج عبد الحي
١٧ ـ طبقات الفقهاء : الشيرازي ، أبو اسحق
١٨ ـ عيون التواريخ : الكتبي ، محمد بن شاكر .
١٩ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون): ابن خلدون، عبدالرحمن
٢٠ ـ قضاة قرطبة وعلماء إفريقية : القيرواني ، ابو عبد الله محمد بن الحارث الخشني .
٢١ ـ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني.
٢٢ ـ لسان الميزان : العسقلاني : الحافظ ابن حجر ابو الفضل أحمد .
٢٣ ـ مالك : حياته ، وعصره ، آراؤه الفقهية : ابو زهرة ، محمد
٢٤ ـ المختصر في أخبار البشر : ابو الفداء . عماد الدين اسماعيل بن علي .
٢٥ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان : اليافعي ، ابو محمد عبد الله بن أسعد اليمني.
٢٦ ـ معجم المؤلفين : كحالة ، عمر رضا .
٢٧ ـ مقدمة ابن خلدون : ابن خلدون ، عبد الرحمن .
٢٨ ـ الوافي بالوفيات : الصفدي ، صلاح الدين ابو الصفا خليل بن ايبك .
٢٩ ـ وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان : ابن خلكان ، احمد بن محمد

الفهرس

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

